محمد شكري

السوق الداخلي

رواية

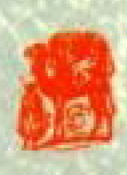


منشورات الجمل

هذا الكتاب

على العكس من معظم كتّابنا الآخرين، تعلّم محمد شكري لغة الأشياء العارية القاسية، قبل أن يتعلّم الكلمات «المعبّرة»، لذلك تظل حياته اليومية هي الأساس، وتغدو الكتابة بالنسبة له ادماناً جزئياً يرفض أن يجعل منه قناعاً للتجميل أو مطية للإرتقاء في السلّم الاجتماعية...

محمد برادة



ولد محمد شكري عام ١٩٣٥ في الريف. انتقلت عائلته الى طنجة اثر مجاعة. دخل المدرسة بشكل متأخر (في أواخر العقد الثاني من عمره). تُرجمت أغلب أعماله الى العديد من اللغات العالمية. يقيم اليوم في طنجة.

صدر له: مجنون الورد، قصص (بيروت ١٩٧٩)، الخبز الحافي، سيرة ذاتية روائية (الدار البيضاء ١٩٨٣)، الخيمة، قصص (الدار البيضاء ١٩٨٥)، السوق الداخلي، رواية (الدار البيضاء ١٩٨٥)، زمن الأخطاء، سيرة ذاتية روائية (الدار البيضاء ١٩٩٢)، جان جنيه في طنجة، مذكرات (الرباط ١٩٩٣)، تينسي وليامز في طنجة، مذكرات (الرباط ١٩٨٣)، السعادة، مسرحية (الرباط ١٩٩٤) و بول بوولز وعزلة طنجة (الرباط ١٩٩٦).

الطبعة الأولى، كولونيا – المانيا

تطلب كافة اصدارات «منشورات الجمل» من الناشر مباشرة أو من:
المركز الثقافي العربي: لبنان – بيروت ص.ب. (١١٣/٥١٥٨)

الطبعة الثانية، ٢٠٠٦

Postfach 600501
50685 Köln - Germany
Tel: 0221 73 69 82
Fax: 0221 732 67 63

- ١ -

دفعني من الخلف. إستدرت. اصطدمت بشخص آخر. اعتذر لي الشخص الثاني. إعتذرت أنا للأول الذي كان يلاحق فتاة مرت قُدامه بلباس قصير، مؤخرتها ممتلئة، مشيتها راقصة. تركت الشخص الثاني يتخطاني. هو أيضاً تلتهم عيناه وجه ومؤخرة امرأة. أشم عَرَقي وعَرَقَ الزحام في كل مكان. غمرني هذا الإحساس: لامكان لي، في هذه المدينة، أينما شئت أن أذهب. لا أستطيع أن أمتلك شيئاً فيها: الأشياء والناس. الحواجز الحديدية، التي وضعوها في هذا الشارع الكبير لتنظيم المرور، ضاعفت هذا الزحام الخانق.

حلقة جِدٌّ زاحمة. فسحت لنفسي مكانا بالدفع كما أراهم يفعلون. شبان وأطفال يرفسون، ضاحكين، مؤخرة كلبٍ هزيلٍ بقسوة. الكلب يتنفس بضعف. عيناه دامعتان. أحيانا يبدو كما لو أنه يتنفس لآخر مرة. سمعت أحدهم يقول:

– مسكين! لابد أن سيارة دهسته.

– علي!

التفت نحو مصدر الصوت: فتاة، في الرصيف الآخر المقابل، تلوح بيدها إلى شاب وسيم واقف بجانبي. لوّحَ لها هو أيضاً بيده وصاح

بالفرنسية:

فاطي، إنتظريني هناك. لن تستطيعي العبور إلى هنا. سأحاول أناالعبور إلى هناك.

تَبَاوسا في الهواء. خيل لي أني رأيت وجها شبيها بوجه هذا الشاب في مكان ما. قد يكون هو نفسه. إن ذاكرتي البصرية قلما تخونني. حتى إذا لم أكن قد رأيته من قبل فإن ملامحه الجذابة تحببه إليّ. هناك وجوه تغضبني بلا سبب وأخرى تُفْرِحني.

– إلى الوراء، إلى الوراء أقول لكم. إبتعدوا عن الحاجز.

شاب يلتحم بمؤخرة فتاة سمينة، يداه على كتفيها العاريتين. قال للجندي:

ها نحن نرجع إلى الوراء، إنهم يدفعوننا من الخلف.

صرخ جنديٌ الحراسة بغضب:

– لايهمني أن يدفعوكم. ما يهمني هو أن ترجعوا أنتم إلى الوراء.

إبتسم الشاب بسخرية. تراجع هو ورفيقته قليلاً إلى الوراء. فتاته منزعجة. أعادهما الدفع إلى مكانهما. جنديٌ الحراسة ينظر إلى وضعهما الحميم بغضب. ترك الشاب يديه تنزلقان بملاطفة على كتفي رفيقته. أحاطها من خاصرتها بلذة. أصابعه تتجمع وترتخي جاذبا إياها إليه. من جديد صعّد بمهل لذيذ يديه متجمعة مرتخية أصابعه حتى لامس برفق منبت نهديها الضخمين. هبّط يديه على مهل حتى خصرها. ضمها إليه بعناد ولذة. وضعهما صار الآن في هياج شهواني. ضاعفت حركة خلف – أمام ثم أمام خلف، من لذتهما.

عينا الحارس تستمنيان، تتناعسان، لم يعد يتكلم. يكاد يبتسم، تأملت أنا الفتاة المستسلمة لرفيقها. لا أحب مثل هذا الجسم الشحمي. إن شكل وجهها يشبه بطيخة حمراء. يوحي لي بالغباء مثل هذا الوجه. يعجبني الوجه الذي يشبه شكله بيضة أو قلبا. هذا الجسم المكتنز من تحت، الأسطواني من فوق، لاتروق لي شهوانيته أكثر من مرة. إنها مثل وجبة طعام تُؤكل عن جوع وليس عن شهية.

تحركات في كل الأرصفة حول الساحة. أعناق تتطاول من كل مكان. عجوز مغربية دامية الوجه يمسك بهاأحد جنود الحراسة وأحد شرطة المرور. قدامي فتاة يلتحم بها من الخلف شاب. قالت غاضبة:

– إذا أنت لم تتركني فسأشكوك لهذا الجندي أو لذاك الشرطي. من الأفضل لك أن تبتعد من خلفي.

– ليست لومتي. إنهم يدفعونني من الوراء.

وجه الشاب مورد وعرقان، عيناه حالمتان، شفتاه لامعتان. اقتربت سيارة إسعاف من المرأة العجوز. تخبط بيديها ورجليها بين يدي الشرطي والجندي.

– ماذا يكون قد حدث لها؟

– ربما أرادت العبور إلى الرصيف الآخر فوقعت على وجهها مندهشة وخائفة من ألا يتركوها تعبر.

– ربما.

العجوز تقاوم الصعود إلى سيارة الإسعاف. رجال الإسعاف يمسكون بها وهي تبكي وتصرخ خابطة بيديها وترجوهم أن يتركوها

تذهب. هناك من يشفق عليها ومن يضحك. رفعوها خابطة باطرافها في الهواء. أكره هذا النوع من الشيخوخة. لا أتمنى اليوم الذي يكون لي فيه مثل هذا العجز والخوف المرعب والمضحك.

عادت لذة الإنتظار بين المتزاحمين الواقفين. إستندت إلى جدار قرب مقهى باريس. قبالتي القنصلية الفرنسية. داخل المقهى أرى أقداحا أكثريتها فارغة، منافض ملأى بالأعقاب والأوراق المدعوكة. ملامح الجالسين فيها فقدت حيويتها، هيأتهم منهوكة، ينظرون إلى بعضهم البعض أو إلى المارة أكثر مما يتكلمون.

خيط من الدم يسيل من خطم الكلب العجوز. يغالب النعاس وعيناه تدمعان. خيط الدم يَرِقُّ ويرقّ، ينقطع ثم يتولد خيط آخر يتدلى ببطء من خطمه. تكونت شبكة دموية قاتمة رسمها تارجح رأسه. إمرأة مغربية تنتحب. قال لها رجل:

– إذهبي إلى المستشفى المدني ليحقنونك ضد السعار.

التفت إلي الشخص الذي نصح المرأة:

– أليس كذلك ؟ لتذهب إلى المستشفى.

هززت له رأسي موافقا. أهو كلّمني أم كلم آخرورائي؟ تكاد الوجوه يدخل بعضها في بعض. تتشابه علي الوجوه في هذه المدينة: قوس قزح. العيش فيها أخذ يبدو لي شبيها بأمل العيش في كوكب أزرق.

– إنه لايعرف مايقول. إن الكلب المسعور لايكون هادئا هكذا. إنه مريض فقط.

– لابد أنها داست إحدى قوائمه فعضها.

خلع شاب فردة حذائه وضرب بها وجه الكلب. لم ينبح. يكشر عن أنيابه. حوّل وجهه بتألم، تدلت خيوط أخرى من الدم. قشعريرة باردة ركضت في جسمي. صرخ شخص ضاحكا:

– أعطه ضربة أخرى كي ينهض ويذهب من هنا أو اضربه حتى يموت.

غاضبة صاحت إمرأة أجنبية بالإنجليزية:

– كفى! لماذا تضربه هكذا؟ ماذا فعل لك الحيوان المسكين؟

قال لها الشاب المغربي الذي يضرب الكلب بين لحظة وأخرى:

– إنه يعض يامدام. ولد القحبة يعض.

لم تفهم شيئا. احتذى الشاب فردته. قال لمن حوله:

– ولد القحبة حتى هو عنده من يحميه، إننا نعيش عصر الكلاب. خذيه معك وداويه يامدام. إذا مات في الطريق فجريه إلى مقبرة الكلاب في «بوبانة».

لامه بعض الحاضرين فانصرف. سمح رجال الأمن لبعض المارة أن يعبروا إلى الرصيف الآخر. عبرت الفتاة فاطي راكضة. إرتمت مشتاقة على صدر زميلها. قبلته في فمه. ضمها بحب. التفتوا إليهما. تكلمت بلهجة فرنسية سليمة. قالت الفتاة السمينة المشدودة من خاصرتها إلى زميلها بصوت هامس:

– أبوها مغربي وأمها فرنسية. أعرفها، إنها تسكن في حي «مرشان».

تأملت جسمها الشحمي الذي لايروق لي: إنك تغارين منها.

أليس كذلك؟ إنها أجمل منك ورشيقة. أليس كذلك؟ التفتت إلي كما لو أني تكلمت جهراً معها. ربما أحست، من خلال نظراتي إليها، أنني أفكر فيها بسوء. حولت نظراتي عنها. بدأت أنظر إليها بحذر حتى لا أثير انتباهها. لا أريد مشاكل مع دبها الذي يخاصرها. رافعة صدرك أصغر من نهديك الضخمين، عرقك يكشف عن قذارة صدريتك البيضاء، شفتك السفلى ممتلئة أكثر من شفتك العليا، شاربك الوبري لا ينسجم مع وجهك المدور. إنك مثل تونة ضخمة.

قالت الفتاة الجميلة لرفيقها:

– علي، لماذا يتزاحمون هناك؟

– ينتظرون موت كلب عجوز، الكلب ما يزال يعض كل من يدوسه.

(ابتسم ثم أضاف:) إذهبي لكي تري إذا شئت.

– أنت مجنون أم ماذا؟

تضاحكا بحب. ضمها إليه. التحما بلذة: فكرت: الرغبة الحقيقية، الشهوانية، لاتتم، أحيانا، إلا بمزيج هذه الأنوثة المفرطة تلطفها هذه الذكورة المعتدلة: ثلاثة أجسام عناقها واحد.

زعيق طويل يسمع من بعيد. تطلعت الرؤوس نحو مصدر الصفير الحاد. ظهر رجال الدرك ثم سيارات أمن. بعد ذلك مرُصف طويل من السيارات الفخمة. يخترقون الحواجز الحديدية بفوضى. . يتدافعون. يتسابقون إلى العبور نحو الأرصفة الأخرى، يتشاتمون. يصرخون. روائحهم الخبيثة تفوح منهم الآن أكثر مما كانوا واقفين. الكلب

ينهض. يسقط. يغالب ضعفه. يقوم بصعوبة. قوائمه تنكسح كما لو أنها من المطاط الرخو. فتيات يصرخن ويشتمن. المرأة الأجنبية لم تزل تحمي الكلب. المرأة المغربية المعضوضة ذهبت منتحبة. حَقْنها ضد السعار ضروري. هكذا أكدوا لها. الكلب القرقازي يمشي. الكلب قرقاز تمزقت بعض خيوطه.

مرة أخرى وجدت نفسي يدفعونني من جميع الجهات. لم أعد أستطيع الإحتجاج على أي كان يدفعني. ماعدت أعرف المؤدب وغير المؤدب. الأمر أكثر إزعاجا حين يطارد رجل إمرأة في هذا الزحام. قميصي يلتصق بجلدي. حككت بأصابعي صدري. تشكلت فتائل من الوسخ تحت أصابعي. أكره رائحة جسدي في هذا الزحام. الأشياء تبدو لي مقلوبة ضبابية، الفتيان يتدافعون عمداً لافظين كلمات جنسية. فتيات يشتمن الشبان الذين يقرصونهن من الخلف أو يضربونهن ضربات خفيفة على عانتهن. شاب يمشي خلف شابة. شعرها طويل أملس مثل حرير سنبلة ذرة خضراء. أخرج مقصاً وقص خصلة من سالفها ثم وضعها بهدوء في جيبه. لست أدري إن كان قد رآه غيري. فتاة أخرى تنتحب وإمرأة تدفعها أمامها بين خطوة وأخرى. تنورة الفتاة جد قصيرة. فخذاها ممتلئتان وعجيزتها مكورة وبارزة.

– سأقتلك إذا طلبت مني الخروج مرة أخرى في مثل هذا اليوم.

سأل شاب آخر عما حدث للفتاة. قال:

– شاب محمي برفاقه عراها من الخلف أكثر من اللازم.

– أين؟

– في الزحام. كانت واقفة هي وأمها تنتظران مرور الموكب الرسمي. ظلت الفتاة ساكنة حتى فطنت الأم لما يحدث لإبنتها من الخلف.

ها فخذاي جميلتان. مؤخرتي ممتلئة. سروالي القصير الشفاف، أبيض أو وردي، يكشف عن أسفلي الحليق أو غير الحليق. نهداي دون رافعتين. ميني أو ميكرو من جميع جهات الجسم. السيقان، الأفخاذ، المؤخرات، النهود والوجوه البهلوانية تتراقص بجنون وسخف في عيني. أصابتني عدوى هذا الجوع مثل الآخرين. أخذت آكل عري بعض هذه الأعضاء كما يقضم طفل حلواه، لكن هذا المضغ الخيالي أخذ يضاعف من تعب حواسي. عيناي تفترسان وعقلي يمضغ بتثاؤب رتيب مُنْهِك. سأحْمِق إذا لم أكُفَّ عن هذا الهَوَى الخيالي. تكفيني حلوى واحدة حقيقية. كيف الحصول على هذه الحلوى البشرية؟ هذه هي الدوخة التي تُجَنِّنني.

توقفتُ قدام مطعم «فلوريان». أثمان الأكلات على القائمة غالية في هذا المطعم.

استوقفني شاب أشعر. ملابسه وسخة، شريط من القماش الملون بعدة ألوان معقود على جبهته، حافي القدمين. قال بالإنجليزية:

من فضلك، أنا في ظروف صعبة، أعطني درهما إذا كان عندك.

قلت له بالإنجليزية:

درهم واحد فقط؟

استبشرت ملامحه وقال:

– ييس، أونْلي وانْ بليز!

– المعذرة. لا أملك أية نقود.

– اسمح لي.

ابتعد عني شابكا يديه وراءه. ملامحي ليست خبيثة كما أظن. يرتاح الناس إلي أكثر مما أرتاح إليهم. هذا ما يبدو لي. ها واحد يطلب مني درهما. آخر كلمني في الزحام حول الكلب. فجأة أحسست بصفعة وهمية على وجهي. لماذا لم أعطه الدرهم؟ ماكان ينبغي لي أن أسأله بمثل هذه السخافة: «درهم واحد فقط؟».

لقد تلاعبت بمشاعره. فكرت أن أركض وراءه لأعطيه الدرهم، لكن الفكرة بدت لي سخيفة. فات الأوان. سيكون زائفا عطائي. قد يرفض درهمي. لن أستطيع أن أرغمه على أخذه مني. ربما سيطلبه من شخص آخر يعطيه إياه دون تردد. ترددي يفسد علي كثيرا من الأشياء التي تريحني.

قال الفندقي:

– عامر. أنظر إلى اللافتة. تَعَالَ غدا. ربما ستجد عندنا غرفة.

أنا أقبل أي مكان أنام فيه هذه الليلة.

– أعتذر. حتى مطبخنا ينام فيه شخصان. إذهب إلى السوق الداخلي. هناك كثير من الفنادق العائلية في دروبه.

أعترف بأنه ينقصني التمييز، سواء في هذه المدينة أو في سواها، ربما طفولتي الريفية مازالت تُؤَثر علي. لا أعرف، أحيانا، أهُمْ يتخاصمون أم يتصالحون؟ يَجِدّون أم يَهْزِلون؟ أذكر تلك المرة في شارع الملكة إليزابيث: كان الشخصان يتغالبان. لم يستطع أحدهما أن يطرح الآخر

على الأرض. سدد أحدهما لكمة قوية لغريمه. تدخلت بينهما لأفرِّقَهُما في لحظة عنيفة. أصابتني لكمة في وجهي. دُخْتُ. سال الدم من فمي. ترنحت وابتعدت عنهما. مرت على عيني غشاوة عَمَى الألوان وهما يضحكان. قال لي أحدهما ضاحكا بجنون:

– هل أنت بخير ؟

إنصرفت باصقا دمي وتركتهما يستأنفان عراكهما ضاحكين، صارخين.

هاهي واحدة سمراء تمر إلى جانبي. نظرت إلي بإغراء، سروالها القصير الأبيض تكشف شفافيته عن استدارة «سليبها» المطرز بنجيمات مثقوبة. ذراعاها جميلتان وإبطاها يطل منهما الزغب الأسود. إبتسمت لي عيناها . إن مثل هذه الإبتسامة تمطط الشرايين. إبتسمت لها. ضحكت عيناها وانشرحت ملامحها. رأسها غلامي. لاتبدو عليها ميوعة الأنوثة.

هل أصحبك؟

تطلعت إلي.

– إلى أين؟

– إلى حيثما تشائين. إنني حر.

نهداها صغيران. نوع من الوحشية الفتية تخفق في جسدها كله. رائحة عطرها توقظ حواسي. توقفت قدام متجر هنداوي.

– لحظة. أدخل معي، إذا شئت. سأصارحك: منذ أيام اشتريت ثوبا صيفياً بسبعين درهماً. دفعت أربعين لصاحب هذا المتجر.

ينبغي لي أن أدفع له ثلاثين درهما الباقية لآخذ هذا الثوب معي الآن. أكمل لي هذه الثلاثين درهما.

وافقت. لَدَى دخولنا المتجر لامسني نهدها المتصلب في ذراعي. تمشت اللذة مرعشة جسدي كله. إنها واثقة من نفسها. إمتزجت رائحة عطرها برائحة عود الند الذي يفوح في المتجر. دفعت الأوراق الثلاث. تخدير طفيف يسري في جسمي. تأبطتْ ثوبها وشكرت التاجر الهنداوي بالإسبانية. ردَّ عليها الرجل باحترام:

– الشكر لك أنت يا آنسة.

«وجدتها!» هل أشرع في رقصة عارية خيالية؟

توقفتْ « ميني أوستين » بيضاء قرب الرصيف. فتح الباب. نادى شاب أُنْثَوِيٌّ شَكْلِ رأسِه وصوتِه:

– فطيمة ! أنا أفتش عنك، أين كنت؟

أهي لعبة بينهما ؟ التفتت إلي قائلة باضطراب:

– أوه! أعتذر. أنتظرني هنا عبر الشارع. سأعود اليك في لحظات. صدقني. سأعود بعد قليل ونذهب حيثما تشاء.

قبلتني قبلة سريعة في فمي وأسرعت. قبل أن تدخل إلى السيارة لوحت لي بيدها باسمة وأنا أنظر إلى خلفيتها الجميلة. قبلة أخرى هوائية أرسلتها لي من داخل السيارة. قبلة أخرى مع إقلاع السيارة. تلويحة وقبلة والسيارة تبتعد. إنها خدعة مدبرة بينهما. لاشك في هذا. قبلة خفيفة كفقاعة من رغوة الصابون ثمنها ثلاثون درهما. أخرجت منديلي ومسحت فمي: لَوْنٌ بُنِّيٌّ. قبلة بنية ثمنها ثلاثون.

وفَرْجُها؟ فكرت: إن ما حدث لي لن يعيد التجربة من أولها. إنها مثل لعبة الفليبر: إذا وضع اللاعب القطعة النقدية في الشق فإنه لا يسترجعها.

ها أنا أنسى ماتعلمته في حياتي. ربما سأنسى أيضا ما أتعلمه هنا. كثيرة هي المرات التي قلت فيها لنفسي: لن أنخدع بعد اليوم، لكني لاأكاد أتأمل فيما حدث لي حتى يفاجئني حدث جديد ينفي ما إختزنته من تجارب. هكذا يصعب علي أن أقبض على شيء أكون متأكدا من فهمه وعدم الوقوع في خدعته. إنني أنخدع في نفس الشيء عدة مرات ولنفس الأسباب. لست أدري ما هي العلة الحقيقية؟ أهي كيمياء نفسي البطيئة تجاه كيمياء الأشياء الأسرع؟

قهوة سوداء في فنجان لكي أستعيد توازني. سوداء دون سكر مع قليل من الكونياك وشريحة ليمون. إنني أستعذب هذا المزيج قبل تناوله. ياللذة ! لعل غفلتي سببها هذه الدوخة التي أفقدتني صفاء ذهني هذا المساء. ما ينقصني، أحيانا، هو الإنسجام مع الأشياء والناس. عجبا: عرفت تلك الفتاة كيف تسلبني ثلاثين درهما ولم يعرف ذلك الهيبي الشقي كيف يأخذ مني درهما واحدا. أهذا معناه أن الرجال أغبياء مع بعضهم البعض والنساء كذلك مع بعضهن. . ؟ إذا كان هذا صحيحا فإن هذه الخدعة ربما يكون سببها ثقة الإنجذاب الطبيعي بين رجل وإمرأة. من كثرة ما قد يعتقد إنسان أنه رجل مع إمرأة فقد تضيع منه رجولته معها. إن الجنس فخ!

مقهى «زالمورة» يعوم الآن في بحيرات من الأضواء. مصابيح

مدفونة وزهور اصطناعية مغروسة في حواشي السقف. هيا، إنتبهي ياخلايا مخي! تجددي. . !

دخلت. جلست قدام الباب. ظهر شيخ مغربي وراح يجمع المقاعد ويقلبها فوق الطاولات بحيوية. غير ممكن. هل هم أيضاً سيكنسونني من هنا؟ اقترب مني النادل القصير وقال:

– اسمح لنا، سنقفل.

– الآن؟

– نعم، الآن. إننا تأخرنا أكثر من اللازم.

ينظر إليّ وفي يده حفنة من النقود. لم اعرف أيَعُدُّها أم هو فقط يتسلى بنقلها من يد إلى أخرى! يبدو عليه التوتر. نحيف وشاحب. انسحب مُدَمْدِماً بكلمات لم أسمعها بوضوح. أخذ يكلم الحاني الذي أسمعه يشغل الآلة الحاسبة بصخب. نظرت إلى الشارع. خطوات بعض المارة تكنسه في تعب وملالة. خرجت.

في الماضي، حين كنت أعيا من الحديث مع الناس، أقول لنفسي: أسبوع. أسبوع كامل سأتحاشى خلاله أية علاقة بشرية. سأكلم الأشياء في صمت: الشمس، السماء، البحر والغابات. طبيعة الأشياء لا طبيعة الناس.

أعيش ليومي.

بلا حَسرةٍ عن فَواتِ الأوَانِ.

إذا الغد جاءَ

نسيتُ به كُلَّ ماضي زماني.

هذا ماقلته ذات يوم. هل أنا قادر اليوم على أن أعيش هذه الفكرة؟ يخيلُ إلي أن زماني يندفع إِلى الأمام أكثر من اللازم. إنني أجد الناس في كل مكان أو لا أجدهم في أيِّ مكان.

توقفت سيارة الأمن. نزل منها الشرطي وقال لي:

– إطلع.

قلت له:

– عندي البطاقة الشخصية.

– أقول لك إطلع.

لهجته يفهم منها: «اركل الهواء ان استطعت. عضَّ على الغُبار».

الهواء لا يُركَل. الغبار لا يُعَضّ. إذن ساصعد.

كان ثلاثة أشخاص داخل السيارة. قال الشخص السكران:

– لست أدري لماذا يقبضون عليّ! لست سكران، لم أتضارب مع أحد، مع ذلك..

زجره الشرطي السائق:

– هل ستغلق فمك أو لا؟

بعد كل شيء يكنسونني بهذا الشكل. في الصباح سيسرحونني. هذا ما يحدث غالبا في مثل هذه المناسبات الرسمية. إنهم يطلون الجدران، ينظفون الشوارع ويقبضون على المشبوهين. كل شيء يعود إلى قذارته حتى يقترب أوان زيارة رسمية أخرى. هذا ما يحدث في مدينتي: مدينة الدولار و «هللو مان»!»، «كمان ديس وي مان!» لابد أن يحدث نفس الشيء في هذه المدينة التي بدأت تكشف عن نفسها.

مدينة داعرة كما سمعت وقرأت عنها مثل مدينتي التي حبلها الأمريكيون ثم هجروها. هناك حكاية عن مدينتي تقول بان جنديا أمريكيا نكح حمارة في حقل وعلق لها ورقة مائة دولار في أذنها.

توقفت السيارة. هبطنا ودخلنا إلى المركز. كان هناك أشخاص جالسين على مقعد خشبي طويل. فسحوا لنا مكانا وجلسنا. السأم باد عليهم. بين حين وآخر ينادي شرطي على شخص أو شخصين أو أكثر للتحقيق. عاد الشرطي الأول الذي ركبنا معه. طلب مني أن أتبعه إلى ممر. قال لي:

هات هُوِيَّتَك.

أعطيته إيّاها. ألقى عليها نظرة ثم أعادها لي:

– يمكن لك ان تذهب الآن، لكن كفاك تسكعاً.

أردت أن أقول له شيئا. لم تطاوعني الكلمات. مرة أخرى سحت في ليل المدينة. فكرت في أن أدخل إحدى الحانات لأشرب. كلا. لن أدخل. المحترفات يتصرفن دائما بسخافة واستهتار. إنهن يطلبن مشروبات كحولية باهضة الثمن، لكنهن لايشربن غير لون المشروب. تطلب إحداهن كريم دومنت ماري بريزار فَيَصُبُّ لها الساقي محلول النعنع الطبيعي. تطلب جين طونيك بالليمون فتشرب طونيك دون جين. تطلب ويسكي فيعطونها محلول الشاي الأسود الخفيف. حين يسكر الواحد وتنفد نقوده فغالباً ما يقذفونه إلى الهواء الرطب في الشارع وجيوبه مقلوبة إلى الخارج. مثل هذا فعلوه لي ولغيري مرات في مدينتي. آخر مرة قذفوني من «حانة كيوبيد» حوالي الثالثة صباحا.

كنت قد أنفقت كثيراً على إحداهن ولم ترد، كما كنا قد إتفقنا، أن تصحبني في النهاية إلى منزلي. قد يطعنون الواحد إذا هو بالغ في الإحتجاج، وامتنع عن الإنصراف. سأذهب لأفتش عن فندق. غداً سأتعرف على المدينة دون دفع ولازحام. أتمنى ذلك لأن الموكب الرسمي قد مر. توقفت سيارة الأمن.

– إيه أنت! تعال هنا!

دَوْرِيَّةٌ أخرى. قال الشرطي الأول:

– إركب.

– قبضوني وسرحوني.

– سرحوك؟ متى سرحوك؟

– منذ لحظات. إنني قادم من المركز الرئيسي.

– معك بطاقة التعريف الشخصية؟

– نعم، هاهي.

وضعت يدي في جيبي لأريها له.

– اذهب إذن، لكن هذا ليس وقت التسكع.

– إنني أبحث عن فندق.

إنطلقت سيارتهم ببطء عبر الشارع. قرأت على لافتة الإعلان: «مطعم الشواء». دخلت. المطعم خال.

قال الشاب، قبل أن أسأله من وراء الحاجز الخشبي:

– أطفأنا النار. أنت ترى.

ثم أشار إلى مجمر الفحم الخامد. قالت فتاة تبدو سكرانة، جالسة

في أقصى القاعة:

– سد الباب وآجي هنا. ما تصدع شي راسك.

خرجت. معها الحق. لماذا لايقفل الباب؟ لقد تواجدا. أنا لم أتواجد بعد حتى مع نفسي في هذه الليلة. الفروج هي التي تحكم في الليل. السلطان في النهار للرجل وفي الليل للمرأة. أعصابي تتوتر، يداي ترتعشان. ساقاي تؤلمانني.

سألت رجلا مر إلى جانبي:

– كم الساعة، من فضلك؟

– ليس عندي ساعة. آسف.

انسان مهذب. يقال أن طيبة الإنسان تظهر على ملامح وجهه. بالذات في العينين. «عين المرء باطن قلبه». هكذا سمعت أو قرأت. لكن ويوم يبدل الناس قلوبهم المريضة كما يبدلون أسنانهم المنخورة. ماذا سيقال، مثلاً، عن إنسان زرعوا له قلباً من مادة لَدِنَة أو قلب خنزير؟

ساعة المتجر تشير إلى الثالثة وخمس دقائق. من المحتمل أن تكون الساعة الآن الواحدة صباحاً أو أكثر قليلاً. أشتاق إلى أن أعرف ذلك الإنبثاق الأول للتفكير. إنه شبيه بإنزلاق فرخ من بيضة. الإنسان يوجد ثم يراقبونه ويفكرون من خلاله. يقولون عنه لبعضهم البعض: « أسمعته ماذا قال منذ لحظة؟ إنه رائع هذا الولد ». بعد ذلك يبدأون معه تلقين مبادئ الأخلاق. يقولون له، مثلاً: هذه لك. هذه ليست لك، هذا قبيح. هذا جميل.. «حين يعي الأشياء بوعيه الخاص، يقول

لنفسه: «هاأنذا أحس بهذا هكذا. هاأنا أفكر. هذه لي. هذه ليست لي.. هذا قبيح حقا. هذا ليس قبيحا. هذا جميل وهذا لا.» حينئذ يكتشف أنه يوجد مرتين: مرة قبل وعيه الخاص ومرة بعد أن يعي وعيه الخاص. أسرتي كانت تقول لي: «لقد كنت تصرخ كثيراً. كنت شرساً. كنت تحب هذا وتكره ذاك.» حين بدأت أفكر بنفسي عجبت أن يكون قد حدث لي ما حدثوني عنه دون أن أذكر منه شيئا اليوم.

الساعة ما زالت تشير إلى الثالثة وخمس دقائق. غدا، إذا لم يصلحوها، ستشير إلى نفس الوقت. أنا الآن مثل هذه الساعة. لم أجد لي بعد أي مكان. كما لو أن زمني فات أو لم يات بعد. الأماكن محجوزة أو هي في إنتظار من يملك دفع ثمنها. أحيانا تتاح لي الفرصة لكي أوجد بعض العلاقات، لكن الشرور التي وقعت فيها تصرخ في ذهني: «لا، إحذر جيداً. لاتثق في هذا الشخص. إنه شرير. ألا تراه كيف ينظر إليك؟ هذا المكان مشبوه. حذار أن تدخله، تذكر تجربتك الماضية. إلزم حدودك..»

تجارب الأمس لاتصلح لليوم. تجارب اليوم لن تصلح للغد. أعتقد أن هذا ليس صحيحا بشكل مطلق. إن هناك مفارقة: إذ قد يحدث تغيير زمني ولا يحدث في التجارب المعيشة سوى تغيير طفيف. أحيانا، أعيش إحدى التجارب أكون قد عشت تجربة تماثلها منذ سنوات.

جلست على مقعد جرانيتي في الممشى العمومي. شاب يقترب

مني. يتنغم بلحن. لوحة تتارجح في يده. خطواته لاتتماسك. سكران. توقف أمامي. عرض علي لوحته الزيتية.

– إشرها مني.

تطلعت إليه.

هل رسمتها أنت؟

– نعم، أنا. سأسافر إلى هولاندة لاتابع دراستي هناك في معهد الفنون الجميلة.

تاملت اللوحة: فتاة عارية. شكلها وحشي. لها عينان كبيرتان تتحديان من ينظر إليها.

–آسف. ليس عندي نقود.

– كم تعطيني؟

– ليس عندي نقود، ولا مكان لي أضعها فيه. أنا لست من هنا.

– أنا أيضا لست من هنا. أنا من تطوان. هات ماعندك وأعطيها لك.

– أنا آسف. ليس عندي شيء.

– كم الساعة الآن؟

نظرت إلى ساعة المتجر.

– ليس عندي ساعة، وساعة المتجر تلك عاطلة.

التفت نحو الساعة وقال:

– هل عندك سيجارة؟

– آسف، نفدت سجائري.

هل تصحبني؟ سنبيع هذه اللوحة ونشرب معاً في حانة.

– شكراً. إنني متعب. أفتش عن مطعم وفندق.

نظر إلي بهزء للحظة. إنصرف. سمعته يردد: «لامطعم لك، لافندق ولاسجائر، ماذا عندك إذن ؟».

هبطت إلى السوق الداخلي. في مقهى «سنترال» استرخيت فوق كنبة. وجبة طاجين البطاطس باللحم التي أكلتها في أحد مطاعم هذا السوق تنعجن في معدتي الآن سيئا. لم يكن الطعام جيدا. لم أحبب أبداً الطعام متعة لذاته. أحب دائما الطعام من أجل المتع الأخرى الممكنة من خلاله.

الفندق عامر. تعال غدا باكراً واحجز لنفسك غرفة. هذا ما يقوله الفندقيون في هذا السوق الداخلي. لوكانت عندي نظارة لونها غامق لنعست قليلا جالساً فوق هذه الكنبة. بعض الحيوانات تنام وعيونها مفتوحة. لماذا لا يستطيع الإنسان أن ينام مفتوح العينين؟ سمعت أن هناك ناساً يستطيعون النوم وعيونهم مفتوحة. قد يحتاج هذا إلى إرادة عالية. كل شيء ممكن. لكن كيف؟ إن كيمياء الأشياء والناس صعبة. هناك أنواع من الموسيقى أحب دائما سماعها، لكن الغريب هو أن نفس الموسيقى تحزنني تارة وتفرحني تارة.

دخنت كثيراً. شربت قهوة بالحليب ثم ماءً معدنيا. لا أستطيع الآن حتى أن أنظف أسناني من الحموضة التي تضايقني دائما، بعد الأكل، في فمي.

كان يجب علي أن أضع في جيبي فرشاة الأسنان والمعجون قبل أن

أسلم حقيبتي إلى أمين مستودع القطار. لم يبق في القهوة سوى ثلاثة شبان منفوشي الشعر. إثنان أجنبيان يتكلمان بالإنجليزية والثالث مغربي يتكلم معهما بإنجليزية رديئة. كان الهيبيان يتلفظان ببعض الكلمات المغربية وهما يبسمان أو يضحكان

«مزيان بزاف. «الحمد » لله. «إن شا الله..».

حين سمعت النادل يقول لي: «إيه! سبحان الله! أفق من فضلك». كنت أنا الوحيد في المقهى.

- ٢ -

الإقامة هنا، في فندق «لاكليريير» La Clairiere رائعة، لكنها فوق مستواي المادي. كل نزلاء الفندق مصحوبون إلا أنا. جلست في الشرفة المطلة على هاوية مشجرة. هواء هذا الصباح يهب محملا بمزيج من روائح هذه الغابة. صاحبا الفندق فرنسيان. الرجل كهل. زوجته تبدو أكبر منه. هي مليئة بالحيوية، وهو يقضي معظم وقته يقرأ الجرائد أو ينظر إلى برامج التلفزة الإسبانية. الخادمة فتاة مغربية. تبدو محافظة في سلوكها. هاهي آتية بإفطاري. صباح الخير قالتها بصوت هامس. حييتها ناظراً إليها. تورد وجهها الشاحب. تكتفي بأنصاف النظرات. بشرتها بيضاء والزغب وافرٌ على ذراعيها. يداها موردتان لامعتان. ربما كانت تغسل شيئا في ماء ساخن. مشيتها غريبة حين أدبرت. مشت جانبيا ساترة مؤخرتها بالصينية. بدأت أتناول فطوري وعيناي على القاعة منتظراً ظهورها لاطلب منها المنفضة. ناديتها، إقتربت مني أكثر خجلاً من السابق. شفتاها مزمومتان. نظرتها طفولية. وقفت شابكة يديها وراءها. ذكرني وجهها بوجه فتاة في لوحة قوطية.

– منفضة، من فضلك.

قالت إيماءة رأسها:

– نعم.

خطت خطوات إلى الوراء قبل أن تدبر في مشيتها الغريبة محاولة أن تستر بيدها اليسرى جانب ردفها. غريبة هذه الفتاة. مؤخرتها تبدو عادية. لماذا إذن تحاول سترها؟ أتكون قد حدثت لها مشكلة مؤلمة مع مؤخرتها؟ مشاكل المؤخرات لأصحابها وليست لي.

حين وضعت لي المنفضة كانت يدها اليسرى خلفها. أنا أيضا شكرتها بحركة من شفتي ورأسي حتى أعفيها من الرد بالكلام. لم اتابعها بنظراتي حتى لا أحرجها. كل شيء يمضي هنا بهدوء وبأقل ما يمكن من الكلام. الغابة عرس. شقشقات الطيور، شدوها وأنسام العبير. العالم الصاخب في غياب تام هنا. أمس، حين تمشيت في هذه الغابة، كنت أسمع إنكسار اوراق الأشجار وإنسحاقها تحت قدمي وعبير الأرض يضمخني. لم يسبق لي أبداً أن استنسمت مثل تلك الرائحة العتيقة التي ظلت مختزنة عشرات من فصول الخريف. مارأيت من قبل مثل ذلك البساط البني من الأوراق. وحدتي تلك بدت لي مغرية بالحياة والموت.

إنتابني شعور بأن أكون وحيداً وألا أكون. أن أعود إلى المدينة ولاأعود. فكرت أن الإنسان، في مثل هذه العزلة، إما أن يسمو فيها إلى منتهى العقل أو يسقط في منتهى الجنون.

السماء صافية في هذا الصباح. حين تغيم تخيفني. إنها تبدو لي مثل صحراء ثلجية لامتناهية. هل أبدأ في قراءة «معنى القلق»

لكيركجور KIERKEGARD أو «الزمان الوجودي» لعبد الرحمان بدوي؟ لقد تَخليتُ أمس عن الاستمرار في قراءة «شيطان في الفردوس» لهنري ميللر. إن حياتي هنا، على هذه الوتيرة، تجعلني أعيش في شبه ماض محض. الحاضر ينحسر كل يوم. المستقبل يكاد ألا يكون له أي معنى. كأنه مجرد أحلام يقظة. كنت أعتقد أن الملل يصدر عن الغباء وحده. إن هذه الوحدة ستكسبني عزاءً تافها. لو أني كنت عبقريا لكان لهذه الوحدة تبرير ومعنى. لكن، مع ذلك، فأنا أحبها مع قليل من الكراهية للحياة يزداد كل يوم ضجرها. فن العيش أم نضاله؟ لاأدري بعد. الغباء هو أن يكون لكل سؤال جواب.

قرأت حوالي ساعة في «الزمان الوجودي». ثم ذهبت أتجول بعيداً عن هذه الفرجة. أزيز الصراصير في كل مكان. يتعاظم أكثر في العراء الذي لاظلال له. الشمس اليوم تنشف الحلق وتدوخ. سلكت طريقا منحرفة عن طريق «رأس سبارطيل» لم تكن هناك، في مدخل الطريق، أية علامة للدلالة. كانت طريقا منحرفة معبدة بالزفت. منذ سنوات لم أتمش في مثل هذه الطريق الخالية من مرور السيارات والناس. الأشجار والطير وصرصرة الحشرات وهذه الشمس غير المخيفة. ماهو مخيف لي، في مثل هذه الوحشة، هو الإنسان الوحش.

إنتهيت إلى ساحة صغيرة. قبالتها مدرسة إبتدائية. المقاعد تبدو، من خلال النوافذ الزجاجية الغبراء، المكسور بعضها، تبدو مهجورة هذه المدرسة. بيوت صغيرة منثورة بعيداً بين الأشجار. ظهر طفل كأنه نهض من الغبار. يدنو مني على مهل. عيناه في عيني مسكينتان،

جائعتان. مدّ لي يده كغصن جاف:

– أعطني «التحريرة» (صدقة العطلة).

لاشك أنه يدرس في هذه المدرسة. أعرف أن كلمة «التحريرة» لا يستعملها إلا أطفال الكتّاب. أعطيته خمسين فرنكا. طفل آخر وآخرون فاجأوني كأنهم كانوا يلعبون معي الإستغماء. إقتربوا مني يطلبون التحريرة. وزعت عليهم نقودي الصغيرة. سالتهم عن إسم المكان. أجابوني صارخين كما لو أنني طلبت منهم جواباً جماعياً: «هذي مديونة». قرية مديونة إذن. طاردوا بعضهم بعضاً راقصين في الهواء صارخين. غريب هذا العالم. إما أن تجد الناس دفعة واحدة في ظروف غير منتظرة حتى تمل منهم أو لا تجد أحدا.

عدت من حيث جئت. طنين الحشرات يتعالى من كل مكان. زوج من الحجل طار على مقربة مني. السراب في عيني. في وسط الطريق كانت هناك، هذه المرة، سيارة واقفة. لم يكن داخلها أحد. دمدمات رجل وإمرأة تصلني من بين الأشجار. صوت المرأة قال بإنزعاج:

– انتظر، انتظر حتى يمر.

أشجار الصنوبر الصغيرة كثيفة. إنهما يريانني ولا أراهما. في السماء طائران أسودان، يحومان وينسابان في هاوية السماء، يصعدان ويتقاطعان، يحلقان في إتجاه واحد، يتماسان ثم يتقاطعان..

ربما الآن، بعد أن إبتعدت عن مكانهما، سيلج لحم الرجل في لحم المرأة بإطمئنان وحرارة. ستفوح رائحتهما في هذا الهواء الساكن الطري. الإنسان للإنسان والطير للطير.

في طريق عودتي إلى الفندق، رأيت أطفالاً واقفين على حاشية الطريق يرفعون في أيديهم للبيع – كلما ظهرت أمامهم سيارة: نوى شجر الصنوبر في أكياس بلاستيكية، تينًا، ثمرات التين الشوكي، نعنعاً، باقات زهور وحشية، ثمرات الدوم، الدقانيش مشدودة مناقيرها بريشها حتى لاتعض. كل واحد منهم، تفصله عن الآخر مسافة. واحد منهم كان جالسا على صخرة يدخن سيجارة بنشوة، أمامه باقات زهور. لم يكن يرفع باقة إلا عندما يرى في السيارة إمرأة إلى جانب رجل. كانت هناك عجوز بائسة تستريح مستندة إلى صخرة حاملة على ظهرها رزمة حطب كبيرة. تأملتني بملامح مكدودة وأنا أمر أمامها. فكرت أن أشتريها منها وتتركها هناك لأريحها من تعب حملها، على الأقل في هذا اليوم، وبيعها في أحد الأفران في المدينة. غير ممكن. إن نقودي محدودة. العطاء بهذا الشكل لا نهاية له في هذا الوطن. قد تحملها حتى وإن دفعت لها ثمنها بعد أن أختفي.

السيارات تمر، الأطفال يرفعون بضائعهم الصغيرة، المرأة تستريح إلى الصخرة وأنا ماض إلى الفندق – المحارة. تساءلت: فن العيش أم نضاله أم مزبلة العالم؟ إن الإختيار رهيب.

بعد الظهيرة وقفت فوق الصخرة العالية. أحسني الآن أسترد نفسي الضائعة. المدينة كلها أمامي. لم تعد مغرية. إنها مثل قلعة مساجين. كنت أحسني فيها مجرد كائن بسيط. أشعرني مسروقاً أينما كنت. هنا موجود لنفسي. كل ما حولي الآن يؤكد لي وجودي: قبور سيدي عمار، الصخور والأكواخ، البحر والمدى الضبابي والسماء. لم

أعد مثل نملة يهددها الزحام بالإنسحاق... إحساس غريب يباغتني الآن. كيمياء نفسي تتغير. رأسي يتكهرب ويدوخ. خفقات قلبي تعنف. أكاد أفقد وعيي. أحسني أغرب مما كنت في المدينة. نفي مخيف يخترقني. نظرت إلى الهاوية. لم أستطع أن أصرخ لكي أطرد شعوراً طاغياً يلح عليّ بأن أقذف نفسي إلى هذه الهاوية. ارتسم أمامي ظل إنسان، تلفت ورائي بسرعة رافعاً يدي معا في دفاع. لم يكن سوى ظل وهمي. إبتعدت عن حافة الهاوية مرتجفاً. مسحت وجهي بكم قميصي. نزلت لاهثا من على الصخرة شابثا بنتوءاتها مثل حيوان يمشي على أربع. أحسستني خائرا، خائفاً. عدت إلى الفندق لأحمل حقيبتي وأعود إلى المدينة.

*

- ٣ -

اشتريت ساعة. أحيانا أحس جسمي جديدا كساعتي هذه. استغرق مشيي من السوق الداخلي إلى شارع محمد الخامس عشرين دقيقة. تخطتني امرأة حُبْلى، قصيرة، تمشي جيدا. تخطاني رجل وامرأة يتكلمان بحدة. يسرعان في المشي. هي منفوخة مؤخرتها وهو منفوخة بطنه. مدّ عجوز يده اليمنى:

– صدقة لله يا ولدي!

أعطيته قطعة نقدية. يده اليسرى ماسك بها منديلاً أحمر مرقطا بالأسود والأبيض. عيناه قرمزيتان، مريضتان. أحسست بانعكاس مرضه على عيني. وخزات وتدمّع يضبب رؤيتي. أفضل الموت على أن أكون في مثل حال هذا الانسان. رجلان واحد يرتدي جلبابا والآخر سترة وبنطالا، يمشيان متلاصقين ويداهما مشبكتان. تضامن؟ أخوّة دينية؟ بدويان يخافان أن يضيع الواحد عن الآخر في المدينة؟ لست أدري. شابة وشاب يتباوسان. يمشيان متمايلين. تعانقه وتلاطفه بحركات رأسها وملامسات يديها. موجودان لنفسيهما. المارة يلتفتون إليهما. توقفا وتعانقا. يبتسمان. الفتاة تبدو أكثر إيجابية من الشاب في المغازلة.

دام سيري من الشارع الذي كنت فيه إلى حيث أنا عَشْرَ دقائق: سأحبس تنفسي لأحس بالزمن يختنق. أحس بصدري كطبل مشدود جيدا جلده والثواني تمر. تضيع في العدّ كذرات الغبار في شعاع الشمس ينسرب من ثقب إلى غرفة عاتمة. يستحيل القبض على حركة الزمن بهذا الشكل الصبياني وحبسه مثلما يمكن، أحيانا، أن يفعل الانسان مع نفاياته وأصواته المعوية. الزمن موجود. يخترقني، يمتص جسمي المليء بالأعضاء التي تقرفني قذارتها وتخيفني أشكالها. أن أحس الزمن أو لا أحسه، هذا لا يغير حركته. لا أذكر متى فكرت فيه لأول مرة. سمعت ذات يوم أخوين يتحدثان: الأول في الثالثة من عمره، الثاني في الخامسة. سأل الأصغر:

– متى سنذهب الى طنجة؟

أجاب أخوه:

– حتى ننعس ونفيق. ننعس ونفيق ثم نذهب إلى طنجة.

ربما هكذا كنت أفهم الزمن في عمرهما. مرة واحدة أذكرها بصفاء ذهن.

سألت بخوف في الظلام:

– ماما، متى سينتهي هذا العواء والنباح؟

– نَمْ ويختف العواء والنباح. نَم. لا تخف من شيء، إننا هنا معك.

فهمت من أمي أن النوم يقتل الخوف. الخوف لا يوجد إلاّ حين أفكر أنه موجود. مجرد صوتها يحميني من العواء والنباح في الظلام.

صوتها أيضا يسكت النباح والعواء. الظلام أخافه حتى بدون نباح وعواء، لكن الخوف يكون، أحيانا، أقوى من النوم، أقوى من صوت أمي في الظلام. صوتها كان يجعلني أحلم في تلك السن. أناديها من أجل لاشيء. أناديها فقط لكي أسمعها تتكلم. حين كثرت الأصوات من حولي ضاع صوتها كما ضعت في الزحام في اليوم الأول من وصولي إلى هذه المدينة. «جئت، رأيت، انتصرت» (يوليوز قيصر). جئت ورأيت ولم أنتصر بعد. لم يعد في وسع أمي الحنان ولا العتاب. حتى الآن فكرة الزمن غامضة في ذهني. إحساسي به أقوى من فهمي له. أنا الذي أخلقه أم هو؟ أستهلكه أم يستهلكني؟ أم كلانا يخلق الآخر ويستهلكه؟ أذهب فيبقى أم يذهب فابقى؟ كيف يمكن إبطاؤه أو إسراعه؟ أهو ممكن إيقافه بشكل ما؟ أدركه مثل الأشياء والأشخا. إذا أنالم أفكر فيها لا توجد. إذا أنا لم أفكر فيهم لا يوجدون. الثلج يطفئ النار والنار تذيب الثلج، لكن ما أنا بثلج ولا أنا بنار. هكذا يظل الزمن هو الأقوى.

تأملت فخذي فتاة ممتلئة من الخلف. كانت جالسة على مقعد قاس. الخطوط الوردية في فخذ واحدة كندوب. كانت تضع ساقا على ساق. هذا ما تقوله الخطوط الأفقية في فخذها اليمنى.

طفلة تمسكها أمها قدام شجرة الرصيف. قالت لها:

– بولي ولا تخافي.

انفجر شيئها وفار شلال صغير في حوض الشجرة. أمها تبتسم لها وطفلتها شبه خائفة تبول وتنظر إلى الناس الذين يرونها. جرح، جرح

مفتوح يفور ويفور. فكرت في وردة دون أشواك. لا قيمة لوردة دون أشواك. فكرت في أشياء كثيرة لا وجود لها إلاّ في خيالي، وجودها في الواقع يوقِفُ ديمومتها وجمالها الخيالي. هناك أشياء تولد دون جذور. من الأحسن ألا توجد الأشياء التي لا جذور لها. إن أيام العاصفة كثيرة. لكن من يقوى على قهر النمو؟

توقفتُ قرب واجهة خاصة بالآلات التصويرية والزمنية. ساعة المتجر ما تزال عاطلة. ذات يوم، ذات لحظة، سيحدث مثل هذا التوقف بشكل ما في جسمي الذي يقيئني كلما زاد جنوني به. يقيئني أكثر من الأشياء التي يبتلعها ويراها. إنه يحول ما هو طري إلى عفونة. أحيانا، أداعبه، يداعب نفسه، أحبه، يحب نفسه، أفركه، يفرك نفسه، أعامله كما تعامل أم صغيرها في حوض الغسيل. لم أعد أذكر كيف كانت تعاملني أمي. لون الورد للورد والطفولة للطفولة. حنان أمي يشبه أحد أحلامي. لا أتعلق بالأحلام. الطفولة للطفولة والأحلام للأحلام.

كهل يتأمل السيقان الجميلة. فرحته تزداد عندما تمرُّ فتاة لابسة ميكرو–جيب. يُصَعِّدُ نظراته ببطء حتى يقف عند الخصر. يُهَبِّطُ نظراته بنفس التباطؤ إلى منبت الساقين. بين حين وحين يدخل يده اليسرى في جيب سرواله المترهل، الوسخ. يشبك يديه وراءه للحظة ثم يعيد يده اليسرى الى جيبه كلما مرت قدامه فتاة جميلة. انحنت فتاة سمراء ميكرو جيب على واجهة المتجر.

انحنيتُ: نصف تُبَّانِهَا (سليبها) مبتلع في شق استها... أم م م..!

لم تعجبني هذه اللقطة. جمالها وحشي وما رأيته أكثر وحشية. اقترب شابان من الكهل، عدّاد الزمن والسيقان. أنا واقف قدام الواجهة قرب الكهل. سأله الأول بالاسبانية:

– كي أورا إيس. سنيور، بور فافور؟ Que hora es,senor por favor —

صون لاس أوشو إي طريس مينوتوس Son las ocho y tres minutos.

قال الشاب الثاني المغربي لزميله:

– ألم أقل لك أنه يستطيع أن يحدد لك حتى الثواني!

– هل أنت متأكد أنه لا يملك ساعة في جيبه يتحسسها مثل العميان؟

– أبدا. لقد فتشه بعض الشبان، مزاحا، فلم يجدوا عنده أية ساعة. هناك شيخ مغربي آخر يمارس نفس اللعبة الزمنية، لكنه يطلب مقدما خمسة فرنكات.

شكراه وانصرفا، هزّ لهما الكهل رأسه بمودة. فكرت: أهذا ممكن؟ نظرت إلى ساعتي الجديدة: الثامنة وست دقائق. دنوت منه. يتأمل الآن بلذة مجنونة ساقي فتاة – ميكرو جيب تمر قدامه على مهل. ردفاها يرقصان رقصة الرومبا. أدخل يده اليسرى في جيب سرواله. شاركته في اللعبة البصرية. باغته قبل أن يستأنف جولة أخرى. إن السيقان العارية لا تنتهي في هذا الشارع.

– بور فافور. سنيور، كي أورا إيس؟

يداه الآن وراءه. حك قليلا مؤخرته وما بين فخذيه. قال بصوت هامس ودود:

– صون لاس أوشو إي أوشو مينوتوس Son las ocho y ocho minutos.

– جراثياس Gracias.

حياني بهزة من رأسه. هذا الإحساس الدقيق ممكن إذن، لكنه يتطلب التكريس لهذا التركيز الزمني. فكرت: أين يمكن لي أن أذهب الآن؟ الغرفة حجزتها. الطعام أعرف كيف الحصول عليه بثمن يلائم ما عندي من نقود. ما ينقصني، الآن، هو اللمس اللّذيُّ لكي أنسى فيه نفسي هذه الليلة. لقد طارت دهشتي. الشارع يموج بالنمل البشري. أريد أن أفقد توازني في نشوة اللمس مع نهدين فتيين. شخصان يتخاصمان:

– إنه يلمس زوجتي على مرأى مني. أين هي الشرطة؟

يتخانقان.

– انظروا كيف يضربني.

الناس يتسابقون من كل مكان في الشارع نحو مكان الشخصين المتعاركين. بعض السيارات توقفت. صف طويل من السيارات تزعق. كثير من العابرين في الرصيف الآخر توقفوا ليتفرجوا عن بعد. فكرت: الفروج للفروج ثم استأنفت سيري.

– Festival-BAR أتريد مشاهدة فيستفال –بار؟

– فيستفال – بار.

إنه في حوالي الرابعة أو الخامسة عشرة هذا الغلام، لكن ينبغي أن أحذر من جميع الأعمار.

– ماذا في فيستفال–بار؟

– كل شيء

– كل شيء؟

– نعم، كل شيء.

– ما هو كل شيء؟

– فيه كل شيء. سيعجبك كثيرا. سترى بنفسك. إنه أحسن مرقص في طنجة.

أعطيته خمسين فرنكا.

– هاك. لا أريد أن أذهب الى هذا المرقص.

ما يحدث، في هذه المدينة، يجعل الانسان يؤمن بوجود الأشياء والأحداث كما هي أو لا يؤمن بوجود شيء. أخذ الغلام القطعة النقدية. فحصها. لم يلح على مصاحبتي. شكرني وابتعد. أوقفت سيارة أجرة.

– «فيستفال–بار»، من فضلك.

مع من؟ أمعي أنا؟ إن لعبة فتاة الثلاثين درهما لن تُعادَ معي. نظر اليَّ السائق بفضول. قلت له في خيالي:

– ماذا يدور في رأسك أنت أيضا يا وجه الفأر؟

– أهو بعيد هذا الحان؟

– ليس كثيرا.

أف! ها أنا قد انزلقت في قشرة موز. ما كان لي أن أساله. إنه الآن قد يجعل المسافة أبعد. هذا ما يفعله معظم سائقي سيارات الأجرة مع الغرباء. مثل هذه التجارب ينبغي للإنسان أن يمارسها مع الناس كما

يعقد رباطة عنقه. فتاة الثلاثين درهما أكانت حقا تنبيها كافيا لآخذ حذري؟

في المنحدر أحسست برعشات لذيذة ذكرتني بطفولتي: الركوب على حمار، التأرجح في الهواء الطلق على الأرجوحة، الجلوس فوق كرسي هزاز والانحناء إلى أمام على مهمل والتقرفص في الليالي الماطرة البارد تحت ملحف.

شرطي يحرس قدام الباب. حان مأمون اذن. دفعت للسائق درهمين. لم يغشني كما ظننت. صفعني نور ملون قوي وهواء فاسد داخن. قال أحدهم لرفيقه:

– إنني أختنق هنا.

قال زميله بالاسبانية:

– كأننا هنا في حمام مغربي، رغم الهواء المكيف.

صاح النادل المغربي بفرنسية لا قواعد نَحْوٍ لها:

– تقدموا إلى الأمام من فضلكم. الوقوف لدى الباب ممنوع.

قال شخص بدين بصوت نسائي:

– لكن لا يمكن التقدم الى الأمام أكثر من هذا. كيف يمكن؟

وقفت وراء شابين قدام المشرب. تحرك أحدهما قليلا فاسحا لي مكانا إلى جانبه.

– يمكن لك أن تقف هنا.

تطلعت إليه وشكرته. أهو لطف منه أم هي دعوة؟ سألني الحاني:

– ماذا ستشرب؟

– أعطني « أمسطيل » باردة.

أوقف شخص، جسمه رياضي، جهاز الموسيقى. صاح في الميكروفون بهياج:

– استهلاك المشروبات اجباري هنا وإلأ سنضطر أن نضع من لا يشرب خارج الباب. أُعيد عليكم بأن الاستهلاك اجباري هنا.

قال النادل لشاب مغربي:

– أَسَمِعْتَ ما قاله صاحب الحانة أم لا؟

بصقت على صاحب الحانة في خيالي. بعض الأشخاص يتابعون الرقص دون إيقاع. موجات النغم لا تتوقف في أجسامهم. يُجامِعون الفراغ بحركاتهم. عاد الايقاع. تنساب الأضواء التجريدية المائية هابطة صاعدة على الجدران و الوجوه المخمورة. تتشكل، تَشعُّ قوية ثم تخفت و تقوى، تتحول، تتموج، تذوب كالأصباغ. أحيانا تستحيل الحركة من كثرة مايزاحمون بعضهم بعضا. يحركون مؤخراتهم ويهزون أكتافهم حينما لا يستطيعون الحركة. تدور الألوان وتدور. يدورون في عناق حميم. وجوههم حمراء صفراء زرقاء.

LICHT! MEHR LICHT!

(نور! مزيدا من النور!) تضيع في الوصف وجوههم مثل محاولة القبض على الزمن. امرأتان جالستان في أقصى القاعة. يتعانق الراقصون بحب. ينسابون على بعضهم بعض كالأضواء المائية على الجدران. إنهم مثل لون على لون يذوبان. كل جسد يحاول الغوص في مثيله. تارة بِرِفْقٍ يعنف شيئا فشيئا وأخرى بِعُنْفٍ يرفق شيئا فشيئا.

بعنف لا يرفق وبرفق لا يعنف. الايقاع و الشراب و الحب زوجاً زوجاً وسراويل لاجيوب لها مشدودة، شفافة كمشدات النساء الرشيقات. مغني الحانة مصبوب في ثوب سهرة نسوي أبيض ووردة حمراء تجمِّلُ صدره. قال الشاب إلى جانبي للحاني:

– أعْطِ بيرة أخرى للسيد.

تلفت نحوه.

– شكرا.

صار اللطف دعوة. قال الشاب بالاسبانية:

– وحدك؟

– نعم، وحدي.

صوته مثل الحلاوة التي تُغْثي. أخرج علبة سجائر ذهبية ومدها لي. سحبت واحدة. شربت بلذة. داخلي الحار يتدغدغ، يتلطف كنسيم أزرق، أخضر في يوم صيفي. قال الشاب:

– أترقص؟

ها أنا جاء دوري. ابتسمت له. مدّ ذراعه برفق على كتفي. خاصرتـــه. «السلو.» داخلي يهدأ أكثر فاكثر. وضع يدي برفق على مؤخرته. قال:

– إنك رائع.

ابتسمت له. يجعلني أخاصره، أضمه إليّ. يَقْشَعِرُّ داخلي لَذَاذَة. يباسمني وأباسمه. لأول مرة أرقص بهذه الحميمية. كل شيء هنا: EL PODER ALEGRE LIFE IN LOVE

وضع طبيعي في وضع غير طبيعي. حركاته أكثر من امرأة غنوج. باسني على خدي برفق. مدّ لي خده. تدغدغ فمي على بشرته الملساء وانفي تعطر. تباسم بعذوبة. الكرة الضوئية التجريدية اللون في السقف تدور وتدور وتدور. شعاعها يدور في العيون، يُجَمِّلُ الوجه.

LICHT! MEHR LICHT!

أبهذه السرعة يتم هذا الشكل من العناق الانساني هنا؟ الأخضر يجمِّل العيون أكثر. فراشات الأضواء تَرِفُّ على الوجوه والجدران. الشرارات الضوئية تتطاير على الوجوه مثل الحرائق. تصفعها مثل البرق.

LICHT! MEHR LICHT!

أشكال الأشياء على أشكال الأشخاص تدور لامعة. كل شيء هوو ليس هو ولا معنى للقبض على شيء. زحام شوارع المدينة أعدمني. عَمَّقَ غربتي الزحام. هنا يخترقني أكثر من الزمن حين أفكر فيه. تتلوى الأشياء، تتحرباً في اهتزازات الضوء البرقي. أعدم هذه الأشياء ونفسي معها، من خلال الزمن اللامجدي، أثور عليه، لكن مسالمة طبيعية أقوى توقفني. لا شيء يهم الآن. عمق الحياة لا عمق الموت. ليس لي الآن الا هذا الترفق بحياتي من أجل نضج طبيعي، لكنه ينفلت. في كل لحظة أنعدم. لا أستطيع أن أمنع لحظة من لحظة العدم. زمني ينخرني كالسوس في الخشب. لابد من وسيط بين الزمن و المطلق كما هو بَدَهِيٌّ قتل الحمار ليعيش الحيوان الضاري. التصلب الآن في ذهني يسترخي. أنا الذي أخلق المي. أنا من أعدمه. حُرٌّ أن أحسه أو لا أحسه قلقي

هذا. نجوم الأضواءتصفعني الآن، تُدْمعُ عيني والوجوه قبيحها وجميلها. نور! مزيد من النور لكل الوجوه! أحسني مثل ريشة. هيا! شيئا من الحمق من أجل ايقاظ شيء من العقل بانفسي. ياعليّ، عليي، عليّ!

تركت وعيي ينفلت قصدا مني كيما أستجيب للنقلات برشاقة مع هذا المخنث. فمي يمتلىء بالعسل الانساني. يشدني الشاب الرقيق إليه أكثر فأكثر. يدي على كتفه و الأخرى تحس خفقات ربوته. أنزهها على ربوته الدافئة. العسل الانساني يسيل في فمي. الخد على الخد والفم يلامس شحمة الأذن ترعشها ذبذبات الأنفاس. النفخات الراعشة تدفىء صلبي أكثر فأكثر. داخلي مربعات من السكر تنهار ذائبة في فنجان قهوة سوداء ساخنة معطرة بماء الزهر و القرفة. عسل فمي يسيل ويسيل. قال:

– هل أروقك؟

– أنت أكثر من رائع.

إذا لم أبتلع سيفيض فمي. أخاف ألا أعود إلى نفسي. أهو يحس نفس ما أحسه؟ عيناه حالمتان. كل نفخة في أذني تملأ فمي بلزوجة اللذة المبتغاة. توقظ صلبي أكثر فأكثر. تبدل الايقاع دون أن يتوقف. انضممنا إلى حلقة. انسحب بعضهم. الأغنية ألمانية. تماسكوا يداً في يد. يرفعون الأرجل على طريقة «الكان الكان». فكرت: إننا عائلة. لم أعد أفكر إلا في هذه الحلقة العائلية. مع كل حركة أتيقظ أكثر فأكثر. يتمهل الايقاع. عشرات العيون ترمش.

انبثق « الجيرك». انفرطت الحلقة مثل عقد ينقطع خيطه. قال الشاب:

– هيا! سنشرب.

LICHT! MEHR LICHT

– انسحب الشيوخ من حلبة الرقص. عادوا إلى أماكنهم. يبدو أن انعكاسات حركاتهم لا تقوى على قوة هذا الايقاع الشاب. ذات يوم لن أستجيب أنا أيضا لانعكاسات هذا العالم... ها أنا في فيستفال – بار. كان على حق ذلك الغلام. «سيعجبك. سترى بنفسك. سيعجبك كثيرا» . فاتني أن أعطيه أكثر من تلك القطعة النقدية. هذا لا يمكن الآن. ما يحدث لا يسترجع بنفس الشكل والرغبة إلا في الذكرى. لا أومن بمثل هذه الذكرى. أشرب، أدخن، أتدغدغ حتى العظام بلمسات هذا الأنثوي الرائع. إنه نموذج الجنسيين المثليين. «السلو.» من جديد هذا الايقاع يدعو إلى العناق الدافئ. قال لي شيخ:

– أتريد أن ترقص؟

قبل أن أجيبه أمسكني الشاب من يدي وسحبني إلى حلبة الرقص. يده متدبقة في يدي. فكرت: يغار. بسمت عيوننا. تعانقت. ضحكة هستيرية تفجر الأفراح. كرة الضوء اللازوردية تدور في السقف تدور و نحن تحتها ندور. ذهني يدور في الرغبة و النجوم اللازوردية تحمم عينيّ. إنني وعيي دون كثافة. نور! نور! نور يولد جنونا لا يستريح من القبض على نور لا يغمره الظلام.

تنبثق الأشياء كفقاعات. الأشخاص يظهرون ويختفون هنا. إنني لا أكثر من إحساس في هذه اللحظة. لا أستطيع التفكير في الشيء و فكرته في آن. كل ما أراه وأحسه أشياء تطفو. الأوضاع الآن أكثر حميمية. تنسحق الشفاه. الضوء يخفت. تشد الأيادي بقوة على ما تمسكه من الجسد. شَدٌّ أمام – شد وراء. دخلت امرأة قزمة صحبة شابين. بْلاقْ! زجاجة شامبانيا. الرغوة المتدفقة تسيح على الزجاجة والطاولة. الأصابع تنغمس في السائل وتبارك الجباه. حواء وآدم يقسمان التفاحة. شجرة المعرفة من أجل عالم آخر. دخلت فتاتان وشاب. صرخات وقهقهات وصخب يتولد وينتهي بنفس السرعة التي يتولد بها. قال الشاب بصوت راعش حالم وراغب:

– أنصعد الآن إلى فوق؟

اندهشت: قلت له:

– فوق؟

– نعم، فوق.

– أين؟

– إلى فوق.

– أي فوق؟

– فندق الحانة. فندق داتي هو فندق الحانة. بعد ذلك سنعود لنشاهد عرض تعرية الليلة.

ضحكت عيوننا. يزم شفتيه بلذة متراخية. ينوم عينيه برقة بالغة. ركز نظراته الناعسة على عينيّ. أهدابه لا ترمش. لسانه يطل من خلال

شفتيه المزمومتين. يطل ويختفي لسانه. لسان أفعى. يتحكم في عضلاته ووجهه وجسمه بدقة مغرية. سأعشقه إذا هو استمر يغازلني. سأهرب من هذا اللطف المنوم حتى لا أسقط في هذه الارادة المرحة. قلت:

– انتظرني. سأدخل المرحاض.

عبرت القاعة مزحوما. نقلات الراقصين تدفعني دون اعتذار. قال صاحب الفتاتين لشاب:

– أرجوك، لا تلمسهما.

قال الشاب السكران:

– لكن هذا لا يمكن، إنك تراقص فتاتين وحدك. أترك واحدة لسواك.

– إنهما معي، وسأراقصهما وحدي.

خاصرهما معا. ضحك كثيرون وزجاجة شامبانيا أخرى تفتح. الصخب يعلو وينخفض.

– هذا لايمكن. رجل يرقص مع اثنتين.

ظل الشاب يراقصهما بعناد. دفعت باب المرحاض. وجدت هناك ثلاثة يمشطون بحركات أنثوية أمام مرآة صغيرة. يسوون ملابسهم الضيقة الشفافة. يمشطون بالتناوب. أحسست بلذة الأفراغ الساخن. تفور البيرة حارة من جسمي. شخص إلى جانبي يطل على شيئي بلهفة باسمة. قطرت شيئي بعناية. لذة التقطير أرعشتني. ظل هناك المشاطون أنفسهم. إنها لعبة التمشيط. جعلت يدي قريبة من

شيئي حتى تحميه. خفت أن تنتاب أحدهم هستيرية القبض على شيئي بعنف. الشاب يرقص مع شاب مغربي سرواله لا جيوب له. فكرت: هاهي فرصتي لاهرب. سألت عما ينبغي لي أن أدفعه.

– كل شيء على حساب الشاب الذي معك.

هذا رائع. هو لي وأنا له. هذا ما صرناه الآن. غيبوبة العري في فندق الحانة لا تروق لي. عرض التعرية قد أعود لمشاهدته في أمسية أخرى. لن أضيع فرصتي هذه للهرب. أمسك وجهي شاب بحركات أنثوية بكلتا يديه كأنه يمسك فرخا عاجزا عن الطيران. قال لي بالاسبانية:

– إنك وحدك، أليس كذلك؟ إنك وحدك.

تطاولت شفتاه نحو شفتي كشرج ديك يتفل. أبعدته عني بلطف.

– معذرة، إني مصحوب.

– أووه! مصحوب. لحظة. تعال لتشرب معي شيئا ياعزيزي. مجرد لحظة وكفى.

– أرجوك، لا أستطيع.

نظر إليّ بشهوة كمراهقة أهينت كبرياؤها. خرجت. صفعني هواء بارد. أستعدتُ احساسي بعدمي الذي افلت مني في زحام الحانة. ها هو يعود إليّ أقوى مما حاولت أن أهرب منه. إنني في حاجة إلى نور أقوى.

LICHT! MEHR LICHT!

الحارس يشخر. قرب الفندق شجار بين سكيرين من أجل امرأة.

قالت صاحبة الفندق:

– الخصومات لا تنتهي في هذا الحي بين السكارى من أجل العاهرات العجائز.

فكرت فيها: وأنت، أليس لك أيضا وجه عاهرة قديمة؟ التفتت إلي وقالت:

– اسمع ياسنيور، لابد أن أصارحك، إنه لم يكن في وسعي أن أفعل غير ما فعلته. المرأة التي أخذت غرفتك حامل. إنها وحيدة، ولا أظن أنك تريد لها أن تنام في الشارع.

– أبدا. لا أتمنى لها ذلك. لكني حجزت غرفتي ودفعت لك ثمن أسبوع.

– أنا أفهم جيدا ما تقوله ياسنيور. لكن ينبغي لك أن تتفهم الظروف التي أرغمتني على كراء غرفتك لتلك السيدة. إنها ليلة واحدة فقط. لا أعتقد أنك ترضى لها أن تنام المسكينة في المطبخ. أنت رجل وهي امرأة حامل. السرير نظيف. أنا أضمن لك هذا. ستنام فيه هذه الليلة فقط. غدا ستنام في غرفتك أو في غرفة أخرى أفضل منها. إني أعدك.

إن لها وجها متهدما ذكرني بوجه العجوز التي رسمها جويا Goya ناظرة إلى نفسها في مراة تمسكها خادمتها. هززت لها رأسي مستسلما. أشارت إلى حقيبتي داخل المطبخ وشكرتني ثم صَعِدَتْ إلى غرفتها. هذه المرأة أيضا رائعة. تعرف كيف تتكلم بانسانية. ماهرة في جعل الناس يتفاهمون كما يحدث في فيستفال – بار. كل شيء رائع:

المرأة الحامل التي لا أعرفها، النوم في المطبخ، الحارس الشاخر وضوضاء الخصومات التي لا تنتهي بسبب العاهرات المستهلكات حتى النخاع.

من لا يبارك هذا العالم؟

دخلتُ المطبخ. تأملت وجهي في مرآة فوق المغسلة. ينبغي لي أن أنسجم مع جميع الظروف. إنني الآن في العالم وينبغي لي أن أتلوث بخرائه. لقد قتل زمني الكبير زمني الصغير. إن الزمن قادر على أن يلاشي الحقيقة ويحييها في أسطورة. خلعت ثيابي ووضعتها فوق مقعد. غسلت وجهي. دقات على الباب. الحارس في سبات وشخير. ذهبت وفتحت. فتاة شقراء. تطلعتْ إلى عربي وحيتني بحركة مبهمة. فاحت منها رائحة خمر. دخلتْ المطبخ. دخلت وراءها وراقبت حركاتها. راحت تتصرف كما لو أنني لم أكن موجودا أمامها. فتحت حقيبتها وأخرجت فرشاة أسنان ومعجونا. تنظف أسنانها وأنا واقف أراقبها. مسحت فمها بفوطة مستعملة معلقة على مشجب المغسلة. خلعت ثيابها أمامي ناظرة إليَ كما لو كنت تمثالا. إمّا أن تكون جد حمقاء أو جدّ عاقلة هذه الهيبية. وضعت ملابسها فوق خزانة أدوات المطبخ. بقيت في قميص أبيض قصير وسليب سماوي اللون. دخلت في الفراش وجذبت فوقها الملاءة إلى نصف جسدها.

سألتها بالإنجليزية:

– ستنامين هنا؟

– نعم.

– أنا أيضا سأنام هنا.

– حسنا. يمكنك أن تنام.

– أين؟

نظرت إليّ ولم تجبني. فكرت أن أضحك بجنون. سألتني باسمة:

– عندك سيجارة.

– نعم.

أخرجت من جيب سترتي علبة كرافن ومددتها لها.

– أعطني حقيبتي، من فضلك.

مددتها لها. أخرجت منها علبة صغيرة. أفرغت نصف السيجارة من التبغ ثم فتحت العلبة وبدأت تحشو السيجارة بالكيف. جلست على المقعد الذي وضعت فوقه ثيابي. مدتها لي محشوة ثم أخذت تُعِدُّ أخرى لنفسها. الروعة مستمرة. الشخير يملأ حيزا من الصمت. أشعلت لها ولنفسي.

– هل تنامين هنا كل ليلة؟

– نعم، منذ ثلاثة أيام.

– في هذا السرير بالذات.

– نعم، أنا وصديقة لي. محتمل أن تنام هذه الليلة مع بعض الأصدقاء. إننا ننتظر افراغ غرفة.

– لا أفهم.

لم تجبني. تدخن سيجارتها بلذة. أحسست مذاقا مرأ في فمي وأنا أدخن سيجارتي. حلقي ناشف. نهضت وشربت من الصنبور. لم يبق من سيجارتها سوى مصفاتها. رمتها على الأرض و تدلى نصفها الأعلى

من على الفراش وسحقتها بفردة حذائها. فعلت نفس الشيء بِعَقِبي. تأملتُ حجم حذائها. قدماها صغيرتان. قدما فتاة يابانية. لم أضاجع بعد فتاة يابانية. هناك رجال لم يضاجعوا إلا امرأة واحدة: من الاستمناء إلى زواج أبدي. هناك آخرون لم يضاجعوا إلا أنفسهم. يعلو الشخير وينخفض، يقوى ويضعف. نغم يأتي من بعيد. النغم الحزين و الجميل يدنو من الفندق. تذكرت بوليرو رافيل. تأملت ركبتي العاريتين. موزار يَعْبُرُ الدرب فأحلم. النغم يمر الآن قرب الفندق. قافلة بوليرو رافل تمر في ذهني. نظرت اليها. عيناها مغمضتان. ساكنة مثل مومياء. نظرتُ إلى فردتها واليها. كنا أنا وأنيسة على الفراش نلهو بعريينا سكرانين. أضع مربى الفراولة على جسدها وألحسه. أصب الخمرة بين نهديها المضمومتين بيديها. أشرب ثم أتبع مسار الساقية. تأملت حذاءها. كسرتُ كأسيْنا وجعلنا من فردة حذائها كأسنا الواحدة. في ذلك اليوم الصيفي تمنيت لو أني آكل من طراوة لحمها وأشرب النبيذ في جمجمتها.

قالت جرترود شتاين لصديقتها أليس طوكلاس:

– ما هو السؤال؟ ما هو السؤال؟

قالت طوكلاس:

– لاأدري.

– إذا لم يكن هناك سؤال فلا جواب هناك.

ثم أغمضت عينيها إلى الأبد.

قال جوته:

– نور! مزيدا من النور!

ثم جحضت عيناه و غمره النور.

قال ألدوس هكسلي:

– أقفل النافذة، انه أجمل.

ثم غمره الظلام.

- ٤ -

دخلت مقهى سنترال. سألت النادل:

- لماذا يقفلون اليوم؟

- لا أدري.

- هل كل المتاجر تُقْفِل؟

- هكذا سمعت.

- أحتى المطاعم؟

قال زبون:

- عصير برتقال.

قلت للنادل:

- ألا يوجد مكان لي؟

- أنت ترى. كل المقاعد محجوزة الآن. انتظر حتى ينهض أحد.

رأيت أشخاصا يبحثون بنظراتهم عن أماكن مثلي. غمرني إحساس بنفاد الأشياء. ربما تنفد المشروبات والحلويات والفطائر من المقهى ومن كل المدينة. أشار لي بيده شاب جالس على مقربة مني. دنوت منه. قال:

- هل تريد أن تجلس؟

– نعم.

انحنيت عليه كي أسمع ما سيهمس لي به:

– أريد أن أنصرف من هنا، لكن اعذرني على ما سأقوله لك: لقد طلبت قهوة بالحليب على حساب صديق ذهب إلى مكان ما ولم يعد.

قلت دون تفكير فيما قاله.

– طيب. سأدفع ثمن قهوتك.

وقف. طلب سيجارة. أعطيته إيّاها وقلت للنادل:

– إن ثمن قهوته على حسابي.

ابتسم لي الشاب وانصرف. طلبت قهوة بالحليب ورغيفا بالزّبدِ والمربى. أكثر من مائتي شخص جالسين في المقهى. العابرون في الساحة. يدخل بعضهم المقهى. لا أحد يغادره من الجالسين. لكأنهم مصابون بمرض الجلوس. يكفي أن أنهض ليتسابق الواقفون على مكاني. أصوات جنائزية تُسمع من بعيد. الرؤوس تلتفت نحو مصدر الصوت. يتحركون في مقاعدهم و لا أحد ينهض. ظهرت مقدمة موكب الجنازة. يقفون تباعا. أماميو الموكب ينشدون: سبحان الذي لا يموت! سبحان الذي لا يموت! سبوح! قدوس! رب الملائكة والروح!

بعض الشبان ظلوا جالسين. لم يخرج أحد. مرت الجنازة فعادوا إلى الجلوس دون أن يخرج أحد. من جديد عادت الهمسات و القهقهات و الابتسامات. هذا من أجل أن يقفوا، أما أن يغادروا المقهى فلا بد من هزة أرضية ليفروا كالأرانب.

النادل ينتقل بحركات عصبية بين المقاعد. جبينه عرقان، صوته سريع ومهتاج... ينفعل لأي صوت، يكرر طلبات الرواد للعاملين وراء المشرب. قال للصبي وراء الحاجز:

– أين الرغيف بالمربى الذي طلبت؟

العرق يسيل على وجه الصبي البدين. شفتاه غليظتان، متعبتان. قال الصبّي بعصبية:

– ألا ترى؟ إنني أشتغل. أشتغل أكثر من اللازم. أشتغل أكثر منك.

نظرا إلى بعضهما بانزعاج. صاح النادل:

– كفى، أنا لم أقل بأنك لا تشتغل و لا أنا قلت لك أشتغل أكثر منك.

دخل ثلاثة شبان مصحوبين بثلاث فتيات. تقدم أطولهم نحو النادل الواقف لدى الحاجز الخشبي:

– ألا يمكن لك أن تجد مكانا لنا؟

دخل اثنان آخران. قال النادل:

– المعذرة. أنتم ترون، لا أحد يريد أن يغادر.

قال الطويل:

– أوْجدْ لنا مكانا كيفما كان.

– لا يمكن، لايمكن. أنتم ترون بأنفسكم.

تركهم وحمل صينيته المملوءة بالأكواب والأرغفة المدهونة بالزبدة والمربى وبدأ يوزع طلبات الرواد. إنني أدرك خيبتهم التي توترهم. تلح

عليّ حاجة البول. نهضت لأدخل المرحاض. تصادمت مع رجل خارج من المرحاض. نظر إليّ بعبوس. فكرت: مزاجه سيء. حين خرجت وجدت شيخا جالسا في مكاني. قال لي النادل:

–أنت ترى. الشيخ جدُّ متعب. يصاب بنوبة أعصاب إذا أغضبه أحد. إن قلبه مريض.

قال الشيخ بصوت متهيج:

– أين قهوتي؟ أم أطلب قهوة سوداء؟

قال النادل:

– أنت ترى بنفسك كيف هو عصبي.

قال الصبيّ للنادل:

– هاك الرغيف المشوي.

أوشكت أن أحتج، لكني رأيت أكثر من أربعمائة عين، شبيهة بعيون البوم، حاضرة في المقهى والعيون الأخرى العابرة في الساحة. قال لي النادل:

– تناول فطورك على الحاجز إذا شئت.

جلست على المقعد الطويل. أخذت أتناول فطوري. حطت ذبابة على حاشية الصحن الصغير ثم حكّت خرطومها مع طرفيها الأماميين. تقفز فوق المربى و تمص الزَّبَدَ والمربى. تُرى ماذا كانت تمص قبل أن تأتي إلى هنا؟ إنها لا تميز بين الزبد والقيح وبين المربى والدم الفاسد المتخثر. لا تعاف أي شيء. أهي أيضا تمرض وتبرأ من مرضها أم أنها تعيش معافاة حتى تموت دون أن تشيخ؟ سمعت أن فارا انهزم في

معركة فئرانية فأكل خصيتيه ومات. أيمكنها أيضا هذه الذبابة أن تلقي بنفسها عمدا في الشراب إذا انهزمت؟ لقد رأيت ذبابتين ملتصقتين، لكني لم أرهما تتناطحان أو تتلاكمان. كارين أراها تبحث عني خارج المقهى. بانت خلفها صديقتها ايفا. رأتاني.

أمس نمت مع كارين واليوم ربما سأنام مع إيفا أو معهما معـا. «عندما تنطفىء الشموع فكل الفروج تتشابه». لا أومِن بهذا. إن الفروج لا تتشابه. دخلتا باسمتين.

- ٥ -

أحلم. مُسالِمٌ نفسي وسواي. في بيت فالري. رحلتي بدأت. ادراكٌ آخر يغزوني. وجه كارين هادىء كوجه امرأة ميتة في قاع البحر. جميل وجه امرأة في قاع البحر. وجهها محارة كبيرة بيضاء. شعرها شُجَيْرَةٌ نابتة في قاع البحر. نظري يخترق جلدها. تتدفق الدماء في شرايين وجهها. فكرت في السرخَس ناظرا إلى شرايينها. بصري يخترق كل الوجوه: كارين، ايفا، تاتيانا، أجوستين، فالري، شتاين، والقطة سامي. أجوستين يفتل شعيرات رأسه وصدره وذراعيه ناتفا إياها أحيانا قائلا لها: «لا أحد سينتفك إلا أنا ياصديقات جلدي.» تتأمله فالري بحب. تاتيانا تضحك و تضحك ووردة حمراء «مركوزة» (مغروزة) في شعرها فقدت طراوتها مثل جلد وجهها. كارين هادئة تبسم لي أو لنفسها. أيضا ناظرة إلى السقف نصف حالمة. شتاين يلعب مع ظل أصابعه على ضوء الشموع التي تضيئنا، حركات شتاين تتراقص على الحائط. ظله يكبر ويصغر. سامي جاثمة عند قدمي أيفا. هي أيضا أرحلناها معنا بالحشيش في طعامها: الأنغام أمواج تتكسر. باب ديلن يغني للزنوج. الألوان فراشات ترفرف في سماء أبريل. إنه الشهر الذي يستمني فيه كل نرجسي على صورته في الغدير. قوة سالبة

تفقدني وزني وتوازني. أتحرك بوداعة. إنني مُسالم. أفقد جاذبيتي. زمان
لا مكان. قال لي ايكاروس: اياك ان تغازل الشمس. امسكت قمر
كارين بين يدي. تمدّ لي فمها كثمرة أثقلت غصنها وغنت جون بايز
بلغة آرية لا أفهمها. الفراشات تطير في عينيّ كارين وزانفير يهلل
بقداسة للسلام. عسل فمها الحلو- المرُّ يملأ فمي المرُّ -الحلو.
دغدغات تسري في دماغي. زغيباتها الشقراء تَرِفُّ في مسام جلدها.
قبضت برفق على حشيش ابطيها وشممت رائحة عنزة في يوم ماطر
فهاجت رغبتي فيها. وردة حمراء لها عينان كبيرتان. أرى وجهي في
عينيها نسرا. كلما نعست عيناها يسيل فمها في فمي. في عينيّ أو في
عينيها ضباب يخرقه شعاع ضوء. قطرات تتساقط في داخلي كالمطر
الخفيف على الأوراق التي هجرها الخريف وفي السماء بقايا من نور ذلك
المساء حيث أحب دائما أن أكون. الانكسارات الهشة أسمعها كالثلج
المسحوق يُداسُ وأنا مثل فقاعة في الهواء أحسني والثلج بعضه أدوسه
وبعض من أندافه ترشق وجهي. شعر كارين يتموج تحت أصابعي
كَوْمَةٌ من الطحلب ألامسُها في مياه دافئة، ساكنة. المسها كأني لا
المسها. اقبلها كأني لا اقبلها. لا الحلو ولا المر. اتأملها ولا اتأملها:
الأشياء صغيرها كبيرها. الأنباض أنغام. أنباضي وأنباض كارين
أنباضنا. ظاهر الأشياء يغوص في باطنها مثل وجوه فقدت براءتها.
أنوار فيستفال – بار في ذهني بدون ضجيج. شرارات تصفع ولا تُحْرِقُ
العينين. اي صوت سأُسْكِتُه. اية حركة سأوقفها. كل الحركات تنشلُّ
إذا فكرت في إيقافها. سينهار هذا الجدار أمامي إذا شئت.

دخلت تانيا. عيناها وحشيتان. تحية من عينيها لنا. السلام في
العالم. جوبتر يُبارك العالم. أبناء الغالبين يعانقون أبناء المغلوبين.
أبوللون يكتب قصيدة السلم ونيرون يغنيها وأمه تصفق لـــه
ومختاروها العائدون من الحرب ينتظرون نكاحها.

غنت تانيا:

– ماما، هل تأتين؟

ضحكت تاتيانا بعذوبة:

– أرسلني أبي إليك.

ضحكت تاتيانا بعذوبة ومرارة. تتعدد الأشياء دون نهاية. العيون
الوديعة تلاطف وجه تانيا. نهض شتاين وركع عند قدمي تانيا ضارعا
إليها:

– تانيا، حبيبتي تانيا، أرجوك، لاتعصريني.

تنظر إليه كأخت في زمان نفرتيتي.

– لماذا تفكر هكذا؟ كيف تريدني أن أعصرك؟

يداه ممدودتان إليها في ضراعة.

– أرجوك، أعبدك، أنت مولاتي. المحبة. المحبة ياتانيا.

جلست تانيا. مدَّ لها أجوستين سيجارة. أخذتها. بسمت له
بالمحبة التي يطلبها شتاين. ضحكت أمها بنشوة. أشعلت تانيا
سيجارتها. جفناها فراشتان ترفان من خلال شعلة الوقيدة. أهدابها
لُسينات زهرة سوداء. أجوستين وجهه ليس وجهه. يفتل شعيرات
ذراعه وخصلات شعره المدلاة على جبهته وبسمته ذكرتني بالموناليزا.

شتاين يقوم ويركع أمام الكنبة العتيقة. يركع للكنبة أو لما يراه ولا أراه أمام الكنبة، يقف ويخرج. أمسك وجه ايفا بين يديه برخاوة و لطافة. اليوم ايفا وأمس كارين وغدا هما أو غيرهما أو ربما لا شيء. أستغرق متأملا وجهها. إذا لم أسند رأسها فقد يسقط أمام أو خلف. كارين، شتاين، تانيا، فالري وأجوستين تستمني أفواههم بالسجائر المحشوة أحلاما خضراء. أنا أحلم بوجه ايفا. وجهها هو حلمي الوحيد الآن. كارين تبتسم كَحُلْمِنا. تانيا تصور الوجوه بعينيها الوحشيتين.

– ماما، هل نذهب؟ أبي وأختي ينتظراننا.

ضحكت أمها. ضحكت كارين. فالري تبتسم برخاوة. رأسها صغير جميل مثل رأس حية صغيرة. أمسك أجوستين وجهها. يبسمان. حلماهما في عيونهما. يَتَدانَى وجهاهما حالمين. يلتحمان. يبتلع أجوستين فمها. فم ايفا بيسكويتٌ في فمي. تضحك تاتيانا. أبلع فم ايفا. تضحك كارين. يدخل شتاين عاريا يقطر ماء. عانته كثفية. شيئه متقلص يقطر ماء. قال:

– فالري، أريد فوطة.

فالري فمها مبتلع في فم أجوستين. نهضت تانيا وقالت لشتاين:

– تعال.

– تانيا، أرجوك ألأ تعصريني.

– إنك تخافني كأني مِعْصَرَةٌ وأنت ليمونة أو برتقالة.

– أرجوك، لا تعصريني.

– لا أنا عصارة ولا أنت ليمونة أو برتقالة.

مشى خلفها كطفل بال في ثيابه. يرتجف، يقطر. تاتيانا تضحك. كارين تتأمل السقف. ظلالنا وظلال الأشياء تتراقص في السقف. ظلالنا عملاقة ونحن أقزامها. تتراخى ايفا على صدري متأوهة بلذة. أجو ستين وفالري يذوبان في نشوتهما. دخلت تانيا.

– ماما، هل تذهبين أم تبقين؟

ضحكت تاتيانا. أسنانها الذهبية لمعت. فكرت في رمانة شُطرت. فالري تتسلق كتفي أجوستين. جلست تانيا. دخل شتاين لابسا. ركع أمام تانيا.

– أعبدك، أرجوك ألا تعصري قلبي المسكين.

– ماما، ألا تنهضين؟

ضحكــت أمهــا. أجوسـتين وفالــري يَعْصِران بعضهما. يذوبان في نشوتهما.

– لا تعصريني ياتانيا.

– شتاين، قلت لك أنا لست عصارة.

نهضت تاتيانا. ركع شتاين أمامها. ضحكت له تاتيانا. تعثرت. تلقفتها تانيا. خرجتا أختين حميمتين. ضحكات تاتيانا تبتعد. زحف شتاين نحو ايفا. نهضت كارين. خرجت. زحفت فالري إليَّ. أجوستين يفتل شعيراته. شتاين راكع بخشوع عند قدمي ايفا. ألاطفُ وجه فالري. تتلوى مثل حية صغيرة جميلة. تلين لي كما تلين الحية للحاوي. وجهها أملس مزوق كسمكة سلمون. أجوستين يتأمل سماء الحجرة الغائمة بالدخان. ايفا تُلامس شعر شتاين كأنه طفلها.

تفتح له ذراعيها. يسقط رأسه على صدرها كطفل محموم. تضمه إليها. تحنو عليه. عادت كارين عارية. تطاولت فالري إلى وجهي. نامت كارين على صدر أجوستين. يداه تتنزهان فوق عريها. وضع شتاين رأسه على حجر ايفا. عانقت كارين أجوستين بحب حميم متأوهة. ينهض شتاين ويخرج. يتعرى أجوستين. ايفا تتأوه وحدها. يغوص عري أجوستين في عري كارين. تتعرى ايفا، أتعرى، تتعرى فالري. نتعرى. نصفي لايفا ونصفي لفالري. يتلوى عريٌ فوق عريٍ في عريٍ يمتص عريٌ عريين يمتص عريان عرياً يدخل شتاين عارياً تتشابك الثعابين يتمزق عنكبوت الجحور القديم الثعابين تسعى من جحر إلى جحر تحتويها الجحور.

- ٦ -

كارين منزعجة بسبب ما حدث لشتاين. قال أجوستين:

– سيضعونه خارج حدود المغرب. هذا هو العقاب.

– لم يُؤذ أحدا. أليس كذلك؟

– أعرف أنه لايؤذي ذبابة على أشفار عينيه. أخذ يركع أمام بعض النساء، ويطلب منهن ألا يعصرنه. هذا ما قاله لي شاب مغربي حاول أن يعيده إلى المنزل فلم يستطع.

– وبسبب هذا سيخرجونه من المغرب.

– أعتقد أنهم سيدينونه بتهمة التعري الاباحي في الشارع.

– لكنه كان فاقدا وعيه.

سالتْ ايفا:

– أين يمكن أن يكون الآن محبوسا؟

قالت فالري:

– أعتقد أنهم سيسرحونه بعد أن يحذروه من تعاطي المخدرات.

قال أجوستين:

– سيكون محظوظا إذا لم يطردوه من المغرب.

مقهى سنترال والمقاهي الأخرى في السوق الداخلي ليست مزدحمة

كامس. في سطيحة المقهى بعض الهيبيين يسترخون في كسل وحلم. ابتسمت لكارين. بسمت لي. أستعجل ولا أستعجل آخر الشهر كارها عودتي إلى عملي. ربما لن أعود. العمل صار عندي لعنة. كارين، فالري، أجوستين وشتاين لا يقلقون مثلي على المال. إنهم يستلمون المال بين فترة وأخرى من عائلاتهم. تاتيانا لها ثروة تكفيها للعيش حتى الموت. فالري تتجشأ. قال أجوستين:

– سنذهب إلى المنزل.

حركات فالري لا إرادية. تقول كلمة عوض أخرى. دخلت تاتيانا ضاحكة. أجوستين وفالري ينصرفان. لا أعرف بعد أهي هامة أم لا هذه الأحداث التي أعيشها في هذه المدينة. مع ذلك فتفاهة الحياة عندي أفضل من تفاهة الموت. هناك موت أعمق، لكن للبطولة ظروفها.

أستطيع ألا أكون هنا، لكنني أبقى مشدودا إلى الأشياء أو إلى الناس أينما شئت أن أذهب. وحده الخيال يمكن أن ينقذني. يمكن لي، مثلا، أن أتخيل شكل طاولة أخرى إذا لم يعجبني شكل هذه أمامي. كذلك هذه المرأة أمامي قارئة صحيفتها. إنها الآن تقرأ وتدخن، قُرطاها حَلَقَتَانِ كبيرتان، نظارتها غامقة، سلسلتها اليدوية ذهبية، لابسة سروالا أبيض، هذه الأشياء وأخرى تروقها هـــي وليس لي. في إمكاني أن أجردها منها في خيالي وأُلْبِسها غيرها. يمكن لي أيضا أن أتخيلها أكثر شبابا أو شيخوخة. إنها هي وليست هي بالنسبة لي. الأشياء اذن موجودة وغير موجودة. كذلك هو انزعاجي الآن. كثيرا ما

تراودني فكرة الاعتداء على نفسي وعلى غيري، على عُضْوٍ من جسمي بالذات. يحدث لي هذا أحيانا حتى في أحسن حالات انسجامي مع نفسي وسواي. أن أفْقَأ عيني هذا، أن أضرب ذاك، لكن سرعان ما ألوم نفسي. وشيئا فشيئا تهدأ خواطري العدوانية عندما أفكر فيها رادعا إياها. هكذا أدرك أن للفرح والحزن علاقةً قويةً بالجريمة.

- ٧ -

قدمني إليه أجوستين:

- علي.

مددت يدي:

- مرحبا.

مدّ يده بخفة وقال:

- روبيرتو موراليس، مرحبا.

حركاته سريعة، يتكلم بعصبية، لكن شخصيته جذابة. أهو إحساسي السريع بالأشياء والأشخاص سببه ضآلة جسمي وقامتي المتوسطة؟ أحيانا أتكلم بسرعة وصوت مرتفع. هذا لا يحدث لي إلا مع ذوي القامات الطويلة مثل (أجوستين) أو المتوسطة البدينة. الأمر يختلف مع ذوي القامات القصيرة المعتدلة مثل روبيرتو موراليس أو المتوسطة النحيلة. حين أظل أياما طويلة لا أتكلم خلالها إلا قليلا يحدث لي أن أستجيب للكلام بانفعال سريع جدا في مناقشة طويلة. إن داخلي يكون قد فقد التوازن مع التأثيرات الخارجية. هذا الاضطراب الذهني ينعكس أيضا على حركاتي. إنني لا أستجيب جيدا لانعكاسات الأشياء والناس حين أريد أن أعبر من رصيف إلى آخر، أو

أجدني فجاة أحيي شخصا لا أعرفه أو أمدّ يدي للمصافحة في لحظة وحركة غير مناسبتين.

أخرج روبيرتو علبة صغيرة فضية. أفرغ على ظهر يده قليلا من مسحوق أبيض: – إنها الكوكايين. استنشق المسحوق بعمق ثم سأل أجوستين بنكي باشا:

– هل كتبت شيئا هذه الأيام؟

تطلع بنكي باشا نحو السقف و قال:

– قصيدة بلاستيكية، طويلة، مليئة ببخور الشرق. فيها وُلْدانٌ وحوريات و موسيقى «الراجا».

ضحكت تاتيانا. روبيرتو يتمشى بتوتر في القاعة من ركن إلى آخر. يتوقف في الوسط ثم يخطو ويعيد. لا كلمات. كارين، ايفا وفالري مسترخيات مثل قطط فارسيات. تاتيانا تظل أكثرنا يقظة وحيوية. ثانية سأرحل. سأتجاوز من جديد هذا الحاضر عبر الحدود الزمانية. سأكون هنا ولن. في هذا الزمن والفراغ وغيرهما ربما. الانفصال يتولد لحظة تلو أخرى أكثر فأكثر. قال روبيرتو:

– أمس، فكرت في أصدقائي الذين ماتوا، وفي الذين تربطني بهم صداقة منسية أو تكاد. أيضا لم أنس من تمنيت أن أقتلهم أو يقتلوني ولو في الخيال. القتل قلما يأتي في الأوان...

ضحكت تاتيانا. إنها لا تنتظر من يتضاحك معها. الضحك: إنه عدو المثاليين. نصفها الأعلى يغريني فَرَحاً وأسفلها تُفاحةٌ مشتهاة لا تملك ثمنها. ساقاها تذكرانني بالجميلة التي دغدغت زغيباتها

لساني. تركتني نائما وسرقت محتوى مطبخي. شبابها الأسفل يمتنع أن يشيخ سيّئاً. لاأتذكر منهن إلا سيقانهن حين يشرسن. وفي منتهى السكر لا أتذكر سوى نضالِ نبضينا.

رفع روبيرتو كتابا من فوق الطاولة. تصفح بعضه. وضعه. قال:

– التفكير في الماضي، أحيانا، هو خوف من مستقبل مُريب. الانسانية، الحياة، المصير، إن الانسان لا يبتهج عندما يغزوه بعمق معنى هذه الكلمات.

ضحكت تاتيانا. تثاءبت كارين. ربما فرجها أيضا يتثاءب. بنكي باشا هادىء مثل ماء آسن. فالري تحلم كعاهرة تنتظر زبونا رسميا يدفع ثمن ديونها الصغيرة. أنا ألج في رؤى هذه الليلة اللا زمنية. إني أرى امرأة نصفها الأعلى حية تفقأ بيضة أنا ساكنها أمدُّ لها فمي طالبا لسانها لساني أعطيهاه يصير لي نصفها الأعلى متعانقين نتباكى أصلنا غير آسفين على الدفء الذي أنضجنا.

- ٨ -

قررت اليوم ألاّ أرى رؤى. روبيرتو يروقني أكثر من الرفاق الآخرين. توقفنا في بولفار باستور. يستعرض مرورهن: «هذه هكذا وصفها لي طبيبي». «لو كان في إمكاني لأحببتك إلى الأبد». «تنتظرني عشر سنوات لكي تكوني لي».

ينظرن إليه و يضحكن أو يعبسن.

ها أنا في طنجة. زرتها مع أبويَّ طفلا. في الصباح نذهب إلى الشاطيء. كانت هناك دائما حفلة الشمس والبحر. في المساء نصعد إلى القصبة لنشرب الشاي الأخضر و نطرب لنغمات العود في مقهى شعبي.

مرت فتاة رشيقة فاستيقظت فيه حماقة الرجال. في مشيتها ايقاع القيثارة، وفي ردفيها رقص الفلامنكو.

قال لها روبيرتو:

- ومع ذلك يزعم بعضهم أن الاسبانية لا تعرف كيف تمشي.

تبسمت معه. رقص ردفاها وهاجا. صورها روبيرتو بعينيه من جميع الجهات. الانسانية تمر بوقار وحماقة إذا النظر هيجها. الأشياء، الناس، الفضاء، الليل، وكل الفروج تستعد للدلك الليلي. سألته:

– كيف عرفتها اسبانية؟

نظر إليّ ببسمة عينيه الصغيرتين، المتعبتين:

– إن موسيقى اشبيلةَ ورقْصَها لا يخفيان عليّ.

مرت أخرى جميلة. مدّ لها وجهه الجميل:

– أنت أجمل من أراها حتى الآن.

لم تعبأ به. التفت الي:

– أتعرف ياعلي؟

– ماذا؟

– إنني ألعن الانسان الأول الذي أعطاني أول كتاب شعر.

– لماذا؟

– ليس هو الشعر الذي ينبغي أن يوجد. إذا كان حقيقة يوجد الاه طيب فينبغي له أن يعطيني فردوسه دون شرط. الجحيم أعيشه هنا.

– فكرت: إنه عدمي.

– روبيرتو.

– نعم.

– إنك تحلم.

– العالم من صنع أعظم الحالمين. إذا مات إنسان وفي رأسه أحلام جميلة فإن موته سعيد.

قاطعته:

– أنا أكره من يجعل من لحظاته الأخيرة تمثيلية حزينة. إن أغلب المُحْتَضَرين يفتشون عن أجمل التعابير الكئيبة ليختموا بها آخر

مشهد من تمثيليتهم. الانسان، مهما يكن قد عاش سعيدا، لا يموت وفي رأسه أحلام جميلة. إن معظم المُحتضرين الممثلين كذابون.

قهقه. لم يكن يبالي بالتفاتات العابرين. كنا نمثل مثلهم. تذكرتُ جماجم بودلير تسير في أحياء باريس، وادجار الآن بو يرقص نشوانَ في المقابر.

– تعلم ياعلي كيف تحب أحلامك. الحلم كالنار يطهر. نيرون كان مجنونا عظيما. إنه أعظم حالم. النار هي التي طهرت روماه الموبوءة وأعادت بناءها. الانسان في حاجة دائما إلى نار أو زلزال.

وصلنا إلى نهاية الشارع. يتوقف. يُشير إلى الأشياء والناس. يلتفت إليّ ضاحكا. يتكلم عن الأشياء كأنه صانعها، وعن الناس كأنه معلمهم.

في غرفته. يدخن سيجارة محشوة بالكيف. يتمشى. يداعب سكينه الجميلة. حركاته تخيفني الآن. قد تسيطر عليه وَساوِسُ قَتلي. التفت إلي بحركة تمثيلية سريعة والسكين لامعة في يده.

– حادث. وجودي حادث. هل تكون للانسان فكرة عن الحادث؟ لا أنا فكرت في وجودي ولا أحد فكر من قبلي على أية صورة ساكونها.

(أخرج رزمة صُور) .

ماضي هنا. (أشار إلى الرزمة) . هذا هو منزلي هناك. (أراني الصورة) . كلبي وبندقيتي. أحيانا لكي أصطاد الحيوان وأحياناً لكي أصطاد الانسان. هذه فتاتي. ستة عشر أبريلات. كنت أُجلسها على ركبتيَّ وأعلمها أ. ب. ت. الحب. (صورة أخرى) هذا جسر سان

فرانسيسكو. (صورة أخرى). هذه ثلوج آلاكسا. انظر إلى هذين الطفلين الاسكيموين (صورة) . و هذه صورة الباحثين عن الذهب في الكولورادو. (صورة) هذه لوحة الرسام الكولوبي المجنون بدرو. انظر، انظر،لقد حشر في هذه اللوحة جميع أصدقائه الذين فقد صداقتهم. حتى الذين يكرههم ولم يتكلم معهم قط. (اللوحة تمثل شواهد قبور مرسومة عليها وجوه وأسماء أصحابها وامرأة جميلة طافية خارج القبر مثل أوفيليا الغريقة) . لقد ضاجعتُها له. كان يحبها عفيفة مثل بياتريس دانتي وأوفيليا هملت. أما أنا فقد عاملتها كإحدى المنتظرات على رصيف بيكاديللي أوسان دوني أو الباريو تشينو. إن ذلك ما كانت تريده منه أو مني. مسكين بدرو! لم يكن يؤمن أن أية امرأة في العالم لا بد وأن يكون فيها قليل أو كثير من القحب. كان أبي يقول لي: الشقاء يُعَلِّمُ كل شيء عن النـاس والأشياء قبل الأوان. أمي كانت تقول لي: إن لم تتزوج باكرا فستشقى. اليوم لم ينفعني شيء مما كانا يقولانه لي. ماكانا يعرفانه عن الناس والأشياء لم يعد إلا في الذكرى. ماتا هما، ومات النـاس، والأشياء من زمانهما صدئت.

تأمل ما كتبه وسط الصورة: «جحيم بدرو» . هاهاها. . . إنها مزيج من أفكار اقتَبَسَها عن مهزلة دانتي ومآسي شكسبير ورعب بو. (إن موت امرأة جميلة هو أكثر المواضيع شاعرية) . هذا ما يريد قولهُ من خلال بو.

ضحك. مسح وجهه براحته.. انفعل. باس الصورة بصوت مسموع قبل أن يمدها لي:

– لينا. حبيبتي لينا. ليناي. سبعة عشر أبريلات لم تبلغها بعد. سأجعل منها امرأة المستقبل. سأقتل فيها ما تبقّى من البدائية. ياالهي! هاهو ذا الحظ الوحيد المتبقي لي من ماضيَ المرادِ منك بكل الحاح. لا ملائكتك، لا شياطينك. لا تُفرِحْني. لا تُحزني. إلاهي! لك كل النهاية مفروشة بالأوركيديا ياليناي.

ابتسم. أحب طموحه المجنون. تخيلتُهُ يُجَنُّ. آ... آ...آ...! هكذا تخيلتني أصرخ طاعنا إياي في قلبي ثم يستل سكينة ضاحكا ويتأملها لاحسا اياها. الدم يسيح على الأرض: خريطة دموية لعالم غير موجود. دمي يسيل وروبيرتو يضحك بهستيرية وأنا أضحك مثله بقوة. دمي يتدفق مثل شلال من فمي كلما أعداني ضحكه.

يدور. يتوقف. يرفع رأسه إلى السماء. يغمض عينيه. يقطب ملامح وجهه الجميل. فكرت: كيف لمن يحمل مثل هذا الوجه الوسيم أن يفكر في جريمة؟

تنهد:

– علي. كفى. (رمي رزمة الصور فوق الفراش. تبعثرت الصور وجوها وأنصافها وسيقانا ومثلها وأقلها وما ليس بوجه أوساق أو غيرهما) . هذه ليست إلا صورا. إن عيشي الآن أقوى من الصور. سنخرج لنفكر في الانسانية متباطئة أو مسرعة في الشوارع. إنها أكثر حياة مهما تكن غبية. لم تَصِرْ بعد صورا. مازال عندي صور أخرى، لكنها ليست سوى صور لأفخاذ لوثتها باللزوجة مَرَقُ الليالي الأبيض.

عدنا إلى السوق الداخلي. مقهى فوينتيس. اقترب منا شيخ

متسول. مدّ يده لروبيرتو:

– أعطني شيئا.

– أعطه قطعة إذا كانت عندك.

أعطيته خمسين فرنكا. أدناها المتسول من عينيه. قال رجل جالس إلى جانبنا لزميله:

– في الليل قلما يقترب منك، في هذا السوق الداخلي، متسول سوي العقل. المتسول في الليل إما أحمقُ أو سكران.

قال روبيرتو:

– إنه سيسقط هذا الانسان.

أضاف بعد لحظة:

– عندما كنت في الهند بصقت في خيالي على شحاذين مقروحين كانوا يمدون لي أيديهم بإلحاح وذل وعلى مقربة منهم بقرة تتجول بكل حرية ملتهمة في طريقها الخضر و الفواكه التي لا تستطيع أن تمتد إليها يد إنسان يموت جوعا. هناك حكاية تقول: كان غاندي يتمشى مع انجليزي في أحياء الهند. تفلت بقرة روثها، غمس غاندي أصبعه في الروث ثم وشَمَ به جبينه. قال له الانجليزي:

– إن هذا ليس معقولا.

قال غاندي:

– إن هذا فوق المعقول.

تعالت قهقهات من جميع المقاهي. الشيخ السكران يرقص في وسط الساحة على ايقاع نغم في التلفزة.

– إنه بشع هذا الضعف الانساني.

سقط الشيخ بين مقاعد مقهى فونتيس. كفت القهقهات. لم يقترب منه أحد لاسعافه. يتحرك. يبذل مجهودا ليجلس. رأسه مائل إلى أمام. يداه متدليتان على الأرض. وقف بصعوبة. سقط من جديد على قفاه. قال روبيرتو:

– لنذهب من هنا.

فكرت: التجربة. من المهم اكتشافها، لكن أن أعيشها هو الأهم. لا يهمني شرها أو خيرها. هل هي الحرية وحدها الكاشفة عن قناع الوجود؟ لم أُضَحِّ بعد بتجربتي من أجل حرية الآخرين. أدور. أدور وأدور. حول ماذا؟ إلى أين؟ من أجل من؟ لقد ابتعدتُ عن أشخاص كنت أبتسم لهم في وداعة زائفة. كنت أدور في حلقتهم سبع ساعات في اليوم. خمسة أيام في الأسبوع. تسع سنوات ونحن نشم روائحنا مثل الكلاب: الأعراس، الحفلات العامة، الزيارات العائلية، السهرات الليلية، ألعاب المقاهي، الخصومات والمصالحات والأحزان الغرامية. (كتبت لها سبعا وسبعين رسالة في أقل من شهر). هكذا قال لي أحدهم. أنا اليوم أنمو أيضا في أُفيون آخر، لكنه أُفيون تخلو فيه العلاقات الزائفة. ما يُريحني اليوم هو أني خلفتُ حياة لست آسفا عليها. إنني أُولَدُ من جديد مثل شجرة في غابة موحشة. حقيقة أخرى عن هذا العالم تولد معي في هذه الولادة الجديدة. زمني في اللازمان. بلا سماء ولا أرض. احسني بينهما دون أن أتماسَّ مع إحداهما. زمني في زمن اللازمان.

- ٩ -

مرة أخرى ها أنا في مقهى سنترال. أدور وأدور. أجدني هنا أو في مكان يشبهه. النادل واقف ينظر نحو الباب. زبون يقرأ صحيفته. يتناول كاسه ويرشف منها وعيناه تتحركان من اليمين إلى اليسار. يزم شفتيه ثم يرخيهما. غارق في أحداث العالم. ينتقل إلى الصفحة الثانية ثم يعود إلى الأولى. شخص آخر يلتهم فطوره بلهفة. ثيابه ملطخة بالطلاء. يسعل. السابعة وسبع دقائق. يقولون بأن رقم ٧ هو أهم الأرقام في العالم. الله خلق العالم في سبعة أيام. أيام الأسبوع سبعة. عجائب الدنيا سبع. السموات سبع. درجات الجحيم سبع، ألوان الطيف سبعة. درجات السلم الموسيقي سبع، رؤيا يوسف عن القحط سبعة أعوام. أرواح القط سبع. الفنون السبعة. العالم سبعة أو سبع أو سبعة وسبع معا. هائل هذا الركام من السبعاوات.

وضع لي النادل القهوة:

– هل تريدها هكذا؟

تأملت كاسي المنصفة وقلت له:

– أتركها كما هي.

صبَّ الحليب فانبثق لون بُني غامق ثم تَقَشَّدَ اللون وأرغى السطح.

تطلعتُ إلى الساحة. بنكي باشا آت.

دخل متوترا. جلس. يدخن سيجارته بشراهة. تأمل الكأس. قالْ للنادل:

– ماء من فضلك.

سألته:

– الا تريد قهوة.

– أنا عطشان.

وضع النادل كوب الماء. شرب بلهفة. تأمله النادل بدهشة. قال لي:

– لقد زاد جنونه هذه المرة. جنونه يزداد كل سنة. من الأفضل أن يبقى في بلاده قرب عائلته.

سألني أجوستين:

– ماذا يقول؟

ابتعد النادل مبتسما.

– يبدو عليك أنك لم تنم، هذا ما قاله.

– إنه دائما يسألني عن أشياء لا تهمه: «من أي بلد جئت هذه المرة؟ يبدو عليك التعب أكثر من المرة السابقة التي كنت فيها هنا. من أين جاءت هذه الفتاة التي معك؟ إنها لطيفة. اعتن بنفسك جيدا. لقد القوا القبض أمس على بعض الهيبيز. من حسن الحظ أنك لم تكن هنا. هل معك عملة أجنبية للصرف؟ صرِّفْها قبل أن ينخفض سوقها». أفٍّ! كم أكره هذا النادل وأمثاله!

أشعل سيجارة أخرى بارتجاف.

– عليّ

– نعم.

– هل هو معقول ماتراه؟

– لا أدري ماذا تقصد.

– لا أعني شيئا بالذات.

السيجارة ترتجف في شفتيه. ينفث الدخان من منخريه بقوة. عيناه تدمعان. يغير وضع ساقيه باستمرار. سألته:

– ماذا تناولت اليوم؟

– ماكْسيتونْ.

– والرفاق؟

– في القصر.

– في القصر؟

– الا تعرف قصري؟ أليس لي قصر؟ إنني بنكي باشا. لا بُدَّ أن يكون لبنكي باشا قصر.

– صحيح. إنه قصر. نائمون؟

– لاأدري. و أنت، أين قضيت ليلتك؟

– سهرت مع روبيرتو.

– ماذا تعاطيتُما؟

– شربنا الويسكي ودخنا الكيف فقط.

– عليّ.

– نعم.

– أتعرف؟

– ماذا؟

– ماذا أقول؟ ماذا كنت أريد أن أقول؟ (وضع يده على جبهته ثم أخذ يفتل خصلات شعره). آه! تذكرت. سأتلفن لأمي هذا اليوم. سأطلب منها أن ترسل لي مبلغا آخر من المال. إذا لم تفعل فسأمضغ أوراق الكيف وآكل الخبز مغموسا في الماء أو في بَوْلي. فالري أيضا تنتظر من يوم لآخر حوالتها من أمها. قل لي، وأنت؟

– أنتظر اخر الشهر لأقبض آخر حوالة. بعد ذلك سأعيش على ما يأتي به تسكعي.

– لماذا؟

– لأني لن أعود إلى العمل. لقد صار العمل لعنة بالنسبة لي.

– تفاهة.

–ماذا؟

– من يقبض ومن لا يقبض راتبه في التفاهة. سأتلفن لأمي هذا المساء.

– كم ستكلفك المكالمة إلى شيكاغو؟

– سأحيلها على حسابها. لا تقلق عليّ. أبي مات وأمي تملك أسْهُما في بنك. أمي من أغنى النساء في شيكاغو.

فكرت: أمي من أفقر النساء في القنيطرة.

امرأة سكرانة تحاول أن تشعل سيجارة. تترنح فتنطفئ الوقيدة ثم تشعل أخرى. بِتْكي باشا يدخن بشراهة. يحبس الدخان في رئتيه.

يفتل شعيرات رأسه. أجراس الكنيسة تدق. قال أجوستين:

– صوت المسيح.

قلت:

– بل صوت بُولس الذي ينادي.

– عندك الحق. إن صوت الكنيسة هو صوت بولس. بطرس ينكر المسيح للمرة الثالثة والديكُ يصيح للمرة الأولى. كم أود لو أني ولدتُ في زمن الدعارة المقدسة. بابل، مصر، الجليل، روما. (لحظة صمت) في الاغريق كان هناك يوم خاص للحب المباح. كانت المرأة تنتعل في اليوم المقدس مشَّاءة مكتوب في أخمصها: «اتبعني!» زمن كيلوباترة كان آخر هذه الأزمنة المقدسة.

رجل عار يعبر الساحة ببطء واطمئنان. يلوح بعصاه الجميلة في رشاقة. لا يلتفت إلى أحد. أسمر، نحيل، متوسط القامة. تهامس رُواد المقهى:

– محشش.

– مجنون.

– من يدري!

– غرابة!

نشطت حركة في المقاهي. ذهب بعضهم إلى بعض متسائلين. لم يتبع أحد الرجل العاري. ضحكت في خيالي. سألني أجوستين.

– ماذا يحدث؟

– ألم تر ماحدث؟

– كلا، ماذا حدث؟

– الرجل العاري، ألم تره؟

– نعم، رأيته.

– ذلك ماحدث. كان يحمل فقط عصا.

– هل ضرب بها أحدا؟

– كلا، كان يلوح بها في الهواء.

– الهواء لا يحس بشيء. ربما كان يهش بها على قطيع من الغنم أو البشر في خياله.

نهض أجوستين.

– سارجع.

تساءلت: حتى الآن تخلصت فقط مما هو عادي. أستطيع اليوم أن أرفض وأقبل العلاقات بلا وداعة زائفة، لكني، حتى الآن، لا أعرف ما أريده. ما يحدث لي هنا، كل يوم، شبيه بحادث مرور الرجل العريان الذي أوقف مضغ الفطور في الأفواه للحظة. من كان ينتظر مروره؟ هكذا هو ما حدث لي في هذه المدينة. أجوستين أقل دهشة مني نحو الأشياء. ربما كان يفكر في شيء آخر سلبه وعي الرؤية الكاملة. إنه مجرد شبح مر بالنسبة إليه. كان يرى ولا يعي ما يرى. رؤياه كانت في تلك اللحظة أقوى من رؤيته. هل ساكون أفضل مما كنت أو أني أندفع فقط نحو ما لم أكنه أمس وربما نحو الأسود؟ هاهو يعود. قال للنادل:

– كوب ماء آخر، من فضلك.

– سلما. SE LMA

التفت إليه:

– من هي؟

– لم أحدثك عنها بعد. إنها زوجتي السويدية السابقة. طلقتها منذ سنوات.

– أين هي الآن؟

– في الجحيم أو في الفردوس. لا يهم أين تكون. ليست هنا، هذا هو المحزن. محتمل أنها مع رجل آخر. لايهم. إنها تحب الأسفار إلى الشرق الأقصى.

– أما زلت تحبها؟

وضع النادل كوب الماء على الطاولة وقال:

– هل صديقك مريض؟

ابتسمت له ولم أجب. لم يسألني أجوستين هذه المرة عما قاله النادل.

– كانت تفهمني أفضل مما كنت أفهمها أو أفهم نفسي.

فكرت: أنا نسيتهن كلهن. كرهت الحب الذي يأتي بالقوة أو الضعف. الحب لعبة خاسرة. لم تعد تسليني. كل أصدقائي الذين أحبوا وتزوجوا عاشوا في النحس. لقد رأيتهم يبكون مثل أطفالهم في الحانات بعد أن طلقوا. إنهم يتقيأون المرار في الصباح.

ظهر شرطيان. نهض رجل من قهوة طنجيس. تكلم معهما وأشار بيده اليمنى إلى زقاق «فلايين الحوت».

هزَّ اللرجل رأسيهما. نعم، لم أعد أذكر حتى ملامحهن. أجوستين معه الحق. إن الغياب موت.

– علي.

– نعم.

– أتعرف!

– ماذا؟

– عندي ابنة عمة غنية.

– وبعد.

– عندما أعود إلى شيكاغو سأتزوجها.

– وبعد.

– سنقضي شهر العسل في معسكر الهيبيز.

– أنت محظوظ.

فكرت: أقارب أسرتي من بين أفقر العالم.

– بعد ذلك ساهجرها إذا هي رفضت.

– سترفض ماذا؟

– إذا هي رفضت أن تصير هيبية.

– أنت محظوظ.

– ينبغي للاغنياء أن يصيروا هيبيين إذا أرادوا أن يكونوا انسانيين.

ظهر الشرطيان من جديد في الساحة. تركزت نظراتهما على المقهى. تكلما مع بعضهما. تقدم أحدهما نحو المقهى ودخل وبقي الآخرعند الباب ويداه وراءه.

– أوراقك.

–أنا؟

– نعم أنت. مع من تحسبني أتكلم؟

التفت إلي أجوستين كان السؤال لايعنيه. تأملته كأني أستغرب مثله هذا الطلب. اقترب الثاني مني.

–أوراقك.

الأول لأجوستين:

– ألا تسمع ما أقوله لك؟

– مددت هويتي للثاني. قال أجوستين:

– ليست معي.

– لا أوراق عندك اذن.

– عندي، لكنها في قصري.

– قصرك!

– نعم، إنني أسكن في قصر.

صرخ أحدهم في مقهى طنجيس:

– ها هو يَمُرُّ. ها هو العريان.

نهض الرواد من جميع المقاهي. ضحكت في خيالي. حين لا يعثرون على العراة يقصدون اللابسين. إذا فَشِلُوا مع الهاربين يُزعجون الجالسين.

خَلَتِ الساحة. نهض أجوستين.

– ساعود.

ظهرت المرأة السكرانة في الساحة. توقفت لحظة. تتجه نحو المقهى. أوقفها النادل عند العتبة.

– الدخول ممنوع.

– لماذا؟

– من الأحسن أن تذهبي لتنامي.

– لا أريد أن أنام الآن.

– اذهبي اذن إلى مكان آخر.

– وهنا؟

– ممنوع.

دخل أجوستين. انصرفت المرأة باصقة نحو المقهى. تتمايل. تتوقف. تلتفت إلى النادل وتبصق على الأرض. شتمته. بصقت على الأرض وداستها غاضبة.

– تُفُو على مقهاكم.

تذكرت مزاجهم الغريب: «تعال – اذهب –لكن...»

– أجوستين.

– نعم.

– لنذهب من هنا.

– لماذا؟

– سيعودان. وقد يأتي معهما آخرون.

– لقد تذكرت أني أحمل معي جوازي. هاهو ذا.

– سيسألاننا عن أشياء أخرى لا تهمهما.

– بل هم يهمهم كل ما يفعله الآخرون. إن لديهم دائما أسئلة كثيرة باطلة. إن شغلهم هو أن يحرسوا حرية الآخرين.

– إلى القصر اذن.

– إلى أيّ مكان ماعدا البقاء هنا.

- ١٠ -

قال بخشونة:

– تعال معي.

تطلعت اليه. شخص اخر يتبعنا.

– تعال من هنا.

– انعطفنا في زقاق «وحيد».

– قف هنا. ارفع يديك. (يتحسسني من أعلى إلى أسفل) أين صديقك؟

– من؟

وصل الشخص الثاني.

– الهيبي الذي كان معك في الصباح في المقهى.

– لا أدري أين هو الآن.

الثاني:

– كيف لا تدري؟

– لا أدري أين ذهب.

– لكنك تعرف أين يسكن.

– نعم.

– ماذا عنده في منزله؟

– أصدقاؤه الهيبيون.

– الأول:

– ماهي الأشياء الأخرى غير الأصدقاء؟

– عنده أسطوانات موسيقى البوب، حاك، كتب شعر، مضاجع مغربية، شموع، قيثارة ونايّ.

انتهى الأول من تفتيشي. تأملاني للحظة. قال الثاني:

– ليس هذا ما نريده.

– لا أعرف سوى ما قلتُ.

– وأنت، الا تتناول المخدرات معهم؟

– كلا.

– معك أوراقك؟

– نعم. (أعطيته جواز سفري. فحصه ثم قال:)

– معلم اذن.

– نعم.

– معلم يعاشر الهيبيين. (صَمْت) ماذا تعمل هنا في طنجة؟

– في عطلة.

– معلم في عطلة يتناول المخدرات. (صمت).

قال الأول:

– ماذا تفكر؟ ألست مسرورا؟ (صمت).

تأملاني للحظة. انصرفا. ظَلِلْتُ مبهورا. إلتفتا إليّ قبل أن ينعطفا

ويختفيا. ضحكت ضحكة كبيرة في خيالي. فكرت: إن قليلا من الجنون والصمت يكفيان للتخلص منهم.

قالت تانيا:

– علي، ماذا تفعل هنا؟ أتحلم أم ماذا؟ انك تبدو نائما وأنت واقف.

أفقت من ذهولي.

– آ، تانيا، أنت هي.

ابتسمنا.

– تعال معي إلى منزلنا.

– كنت ذاهبا عندكم.

تبعتها.

– كارين وايفا تركتا لك كلمة.

– أين ذهبتا؟

– إلى مراكش. ثم ستقصدان الصويرة.

– متى ذهبتا؟

– هذا الصباح. (توقفت أمام باب قديم لون طلائه أزرق مُقَشَّر). هنا.

– أعرف. لقد نعتتُه لي أمك.

دقتْ على الباب. أطلت تاتيانا من النافذة الصغيرة ثم ضحكت.

– ماما، افتحي. (اختفت تاتيانا ضاحكة). كارين وايفا، بحثنا عنك ولم تجداك. أين كنت؟ (أطلت تاتيانا) ماما، افتحي.

(اختفت ضاحكة).

– كنت عند بنكي باشا.

أطل رجل.

– أبي، افتح.

– تاتيانا نازلة.

تأملتُ عينيّ تانيا الجميلتين الحالمتين. تَبَسَّمنا. سمعت ضحكة تاتيانا تقترب. انفتح الباب. ضحكت لنا. صعدنا تتقدمانني. صعدنا دُرُجا ضيقة.

تاتيانا تضحك. استقبلني أبو تانيا بترحاب منحنيا على الطريقة الصينية. صافحني:

– جورج.

– علي.

ضحكت تاتيانا. قدمتني تانيا إلى أختها روز. توقفت روز عن الرســم وحيتني بوجه مشرق. أحذية كثيرة معلقة على الجدران. ضحكت لي تاتيانا. تبسمت لها. الأحذية المعلقة جديدة وبالية. سألني جورج:

– كيف تركت «الثوكوتشيكو» الآن؟

– رجال الأمن السريون يفتشون الغرباء في كل مكان بحثا عن المخدرات.

– ضحكت تاتيانا. طَرَقات على الباب. قال جورج:

– تانيا، انظري من يكون!

أطلت من النافذة. انحسر الثوب الباليُ عن فخذيها الطريتين، الجميلتين، الممتلئتين.

– أجوستين، أنت هو، انتظر.

قال أبوها:

– افتحي له.

ضحكت تاتيانا. مدّت لي سيجارة محشوة. من جديد استعرضتُ الأحذية. قلتُ:

– رائعة هذه الأحذية.

قال جورج:

– تاتيانا هي التي تقتنيها.

دخل أجوستين. قال جورج:

– هِلّلو أجوستين!

ضحكت تاتيانا. أجوستين متوتر. جلس دون أن يفوه بشيء. سألتُ تانيا:

– أين الرسالة؟

– نسيت. أووه، اسمح لي.

سألت بنكي باشا:

– أين كنت؟

– في القصر.

– كارين وإيفا سافرتا.

– أعرف.

– وفالري؟

– في القصر.

– كيف هي؟

– تمثل دور أوفيليا بين الجدران والشموع. لا تنقصها إلا الزهور.

– إنها بدأت تمرض. وروبيرتو؟

– لا أدري. ربما هو أيضا يمثل دور هملت في الشوارع التي لا يعرفها. لا تنقصه سوى جمجمة «يورك».

– وشتاين، أهناك جديد عنه؟

– لا أدري.

– ربما نفوه إلى الخارج.

ضحكت تاتيانا. أجوستين يدخن بشراهة. روز ترسم لوحتها وتعض شطيرتها المدهونة بالزبدة والمربى. تانيا تتأمل سيجارتها بحلم. جورج يقرأ في صحيفة. قال بنكي باشا:

– جروفي مانْ Groovy MAN

سألته:

– ماذا هناك.

– نادا. NADA

هززت كتفي بلا مبالاة. ابتسم جورج. ضحكت تاتيـانا. قال بنكي باشا:

– هيفي مان HAVY MAN توماتش مان. TOOMUCH MAN

– فار أوت. FAR OUT

طلبت روز سيجارة. مدتها لها أمها ضاحكة.

– تانيا، أين الرسالة؟

– آ، علي، نسيت، اسمح لي.

ضحكت تاتيانا. قالت روز:

– ماما، سيجارتي ليست محشوة جيدا.

أخذتها منها تاتيانا وحَشَتْها جيدا بالتبغ الأخضر. تانيا تبحث في الأحذية عن الرسالة. قال بنكي باشا:

– ذاتس كوول. THA'S CooL

– آ، هاهي.

أخرجت الرسالة من حذاء يلتمع.

– هاكَها.

قال بنكي باشا:

– آيم أوب. I'ME OP

قرأت: عزيزنا علي، فكرة السفر فاجأتنا. قررنا الذهاب إلى مراكش. إذا لم تعجبنا فسنذهب إلى الصويرة... قيل لنا أن هناك أجمل قُراها وهي «الذيابات». إن الهيبيز أسسوا هناك عيشاً جماعيا. الحياة في مراكش أو في الصويرة أفضلُ من طنجة الخيانةِ كما قال عنها جان جنيه. الحق بنا حين تستطيع.

نحبك: كارين وايفا

قال بنكي:

– بابي مان. BABY MAN كاط مان. CAT MAN مراكش شيك. MARRAKECH CHIC

وضعت الرسالة في جيبي. تانيا تحلم في عينيّ. نهض أجوستين وخرج دون أن يودعنا. ضحكت تاتيانا. جورج مستغرق في قراءة جريدة. روز ترسم لوحتها التجريدية بحلم. تأملت تانيا. هدوؤها شهواني. لم أعد أقدر أن أقول: لا لما هو لا، ونعم لما هو نعم. كما يقول الانسان، أحيانا، الجحيم أو الجنة. حتى الأبله يعرف أن السماء فوقنا.

نظرت إلى تانيا بشهوة. ضحكت تاتيانا. أتخيل نصف وجه تانيا ونصف وجه روز ينبثقان من وجه تاتيانا. جورج يبدو طيبا. أنا دائخ بين ما أعيه وما لا أعيه. بين ما حدث وما يحدث أو لم يحدث بعد، وساقا روز ووجه تاتيانا نصفا وَجْهَيْ ابنتيها. إن للفرج طعم الصودا. قليل من الملح في ماء الصودا. للفرج طعم لحس الجلد في الصيف تحت ظل شجرة. طعم الفرج مازال في فمي. ضحكت تاتيانا. ضحكتها الوردية الرُّمانية تبعث طعم الصودا في فمي. قالت روز:

– بابا، أنظر، هل يعجبك هذا اللون؟

قال بإعجاب:

– أوه، نعم. رائع . استمري.

كنت أهوى صنع تماثيل الحيوانات من الطين. دخل أبي. كنت أصنع تمثالا لطائر. حطَّمَ تماثيلي وقال صافعاً إيَّاي:

– أخرج. «برَّا» أيها الملعون. هذا ما يبقى لك أن تصنع. أخرج وابحث عن شيء آخر تفعله.

تبسمت روز لأبيها. عبست في وجه أبي وخرجتُ إلى الحي لأتضارب مع أول طفل يمازحني. ضحكت تاتيانا. بكت أمي. تانيا

تحلم وتاتيانا تضحك. أختي «عالية» تحمل سطلين من الماء ماشية في الوَحْلِ حافية والأمطار تسقيها. ماذا سيقول الذين عملت معهم حين يعلمون أني طلبت استقالتي من عملي؟ ذكريات قذرة مازالت عفونتها في ذهني. قال لي أحد رفاق العمل: «تزوج. الاستقرار، هذا هو المهم في الحياة. هل هناك أفضل من الحياة الزوجية؟ إذا شئت سنبحث لك عن فتاة طيبة، بنت عائلة محترمة. . . ضحكت في خيالي بجنون. قلت له بهدوء: «شكرا. معك الحق. ليس أفضل من الزواج». ثم أضاف بنفس الطيبة الكريهة: «فكر. فكر قبل فوات الأوان. الانسان يعيش ثم يموت و لا بُدَّ له من أن يخلف ذرية صالحة تخلد ذكره بين الناس». بصقت على وجهه وركلته وصفعته في خيالي. كتبت لي أمي أيضا رسالة في هذا الموضوع الكريه: «ولدي العزيز... تعال في أقرب وقت. عندنا مفاجأة سارة لك». وحين سافرت وذهبت عندها على عجل قالت لي: «لقد وجدنا لك فتاة جميلة جدا في الرابعة عشرة من عمرها. إنها يتيمة، ليس لها سوى جدة فقيرة ومريضة. سلوك الفتاة حسن، خجول ومسكينة. هذه فرصة العمر ياولدي».

رفضت بلطف وعدت إلى الدارالبيضاء. بعد سنوات قالت لي: «هل تذكر تلك الفتاة التي كنا قد اخترناها لك للزواج بها فرفضتَ؟

– نعم، أذكر جيدا.

– إن لها اليوم طفلة وهي الآن حبلى.

– وبعد، ماذا في ذلك؟

– لكي تدرك أنها فتاة كانت صالحة لك لو أنك تزوجتها.

– لكن يا أمي حتى الكلاب تلد.

الأصوات الكريهة لم تكن تتعب. «أسْلِمْ نفسك لما هو طبيعي ومقدور. كن مثل الناس: مثل هذا أو ذاك من العقلاء. افعل هذا. اترك هذا. هذا لايليق بك. «لكني، في كل مرة كنت أحاول فيها أن أكون مثل الناس، أبدأ في كراهية نفســـي وكراهية من أوصاني أن أكون مثل هذا أو ذاك. إن أفواه الناس، في أغلب الأحيان، تفوه بما يشبه رائحة المراحيض.

– ١١ –

الشارع الرئيسي يبدو اليوم أكثر اتساعا. شذبوا الأشجار. رؤوسها مقصوصة. لمست رأسي: سالفايَ يتدليان. أينبغي، أنا أيضا، أن أقص شعري؟ ساعة المتجر مازالت عاطلة. إنها في عطلة صدِئة. المدينة في عطلة، أنا في عطلة، لكنها عطلتي قد تطول أكثر من الساعة والوافدين على المدينة. الرفاق الذين عرفتهم هنا لهم أيضا عطلهم البوهيمية. الله هو أول من أخذ عطلته بعد أن انتهى من خلق العالم. هذا ما قرأته في الكتاب المقدس. خلقه وتركه يفيض ويتم على هواه. أتمنى ألا يكون هناك ندم. خلقه في فصل الربيع. هذا ماقرأته. ياحسرة على شباب العالم! يابكارة مريم التي لم تُفْتَضّ! وتلك المجدلية التي عانقت قدميْ المعلم وغسلتهما بدموع استغفارها. من نظر إلى امرأة واشتهاها في نفسه فقد زنَى معها سبعين مرة. كيف لا نكون زناة؟ لا تشته زوجة صديقك. النبي لوط ينجو بجلده مع ابنتيه وأمهما المولَهِة برئيس الهيكل تلتفتُ خلفها فإذا بها عمود من ملح ناري. أهو فضول النساء أم هو العشق القاتل؟ حتى الملائكة في إهاب البشر نجوا من الاغتصاب. الأم العاقر تلد ابن العالم مكتوب عليه ألا يقرب النساء. موسى يقتل رجلا ويطلب من أخيه هارون الفصيح أن

يدافع عنه أمام فرعون. محظوظات هن أرامل شهداء الحرب في زمان المعجزات. الماء ينبع من الصخر. طوبى للظامئين! الرغيف الواحد يتوزعه الجميع فيكفي. بورك للجائعين في زمن الوحيّ! العصا تشق البحر فتصل الشمس لأول مرة في تاريخها إلى أرض البـــحر. العميـــان و الأبرصون يُشْفَوْنَ باللمس. الميت يقوم بالصوت. يوسف يفسر رؤيا السنابل السبع اليابسات والخضر. ياشباب عالم الأنبياء الطــاهــرين والكهان. لقد استوت اليوم رفاتكم في أعين الناس.

بدأت انسجم مع هذه المدينة. أنوار الشارع تلمع. باخرة تصفر ثلاث مرات. لا أعرف معنى الثلاث. لم أسافر في باخرة ولا في طائرة. حين أنتقل من مدينة إلى أخرى فكأني أنتقل من زنزانة إلى أخرى. إنني مثل هذا القميص الذي ألبسه، فعندما يتسخ ساغسله لألبسه من جديد. الصداع الآن في رأسي يقو ل لي: إنك لم تعد تنام جيدا. تنام مثل أرنب أو فأر. خلاياك تفسد أكثر من اللازم. أنت لست أرنبا ولا فأرا. كن انسانك.

تطلعتُ إلى نافذة غرفة روبيرتو المطلة على سور الكســالى والبحر والميناء. إنه هناك. شخص يتظاهر أنه ينظر إلى واجهة متجر و لكنه يفحصني بنظراته الجانبية. فكرت: ماذا، هل سيطلب مني أيضا النَّمس أوراقي؟ نظر إليَّ هذه المرة شزرا. لا بد أنه أحدهم. إنهم مبثوثون في كل مكان. رغم المزعجات التي تحدث لي في هذه المدينة فإني بدأت أحبها مثلما أحب امرأة تخون محبها ثم تعود إليه تائبة. سمعت خرافة «طنجوية» تقول بان النبيَّ نوح هو أول من اكتشف هذه

المدينة بعد الطوفان. عادت الحمامة حاملة في منقارها غصن زيتون وفي أرجلها عينة من طين فصاح نوح: – طين– جا.

تعال هنا، تَمشَّ إلى جانبي. ارفع يديك. تكلم. ماذا تعمل؟ هل أنت مسرور؟ مايبقى لهم أن يسألوا عنه هو: ماذا فكرتَ أمس؟ ماذا حلمت؟ ما معنى هذا الحلم في رأيك؟ فيم فكرت هذا الصباح؟ والآن فيم تفكر؟ ماذا أنت فاعل غدا؟ هل تعبد الله؟ متزوج؟ من هذه التي معك؟ أرنا عقد زواجكما. أرنا تواصيل الضرائب. أعطنا أسماء الذين قابلتهم هذا اليوم. اذكر لنا أسماء الذين تفكر أن تقابلهم. هل هناك أشخاص تحبهم؟ ماذا يعملون؟ هيا، اذكر لنا كل ما في رأسك. . اذكر لنا ماتعرفه وماتحاول أن تعرفه.

المرأة تنتظر المصعد. فحصتني بريبة وخوف. نظرت إليها بجنون. خفضت رأسها واستدارت لتصعد الدرج. قلت لها:

– يا سيدة، ها هو المصعد يهبط.

التفتت بريبة عدائية وصعدت الدرج بخفة: أهي خائفة من أن أغتصبها أو أخنقها داخل المصعد؟ دخلتُ المصعد وضغطتُ على زِرّ الطابق الرابع. نظرتُ إلى مرآة المصعد الصغيرة. هل صرت مخيفا إلى هذا الحد؟ من خلال زجاج باب المصعد رأيت امرأة وطفلها ينتظران في الطابق الثاني. رفع الطفل أصبعه مشيرا إلى المصعد. فتحتُ الباب. نبح كلب صغير في وجهي. قالت صاحبته بالفرنسية:

– أسكت، جاستون!

قبل أن تدخل المرأة المصعد ألقت عليَّ نظرة فاحصة. ضغطتُ على

الجرس. ماذا يكون فاعلا الآن؟ بعد لحظة اعتمَّ ضابط الرؤية. هاهو. إنه يرى وجهي الذي تضببه عين السمكة الصغيرة الميتة الكاشفة. انفتح الباب:

– أووه! أنت هو. كنت أنتظرك. ادخل. ستشاركني في هذه الليلة الديونيسية – الباخوسية. محظوظتان عينا من يراك.

– ماذا هناك؟

– ش... ش... ش... عندي ثلاث غزالات مغربيات.

تأملتُ هيأته المرحة.

– ثلاث؟

– نعم، ثلاث. أجمل منهن لم أر من قبل في طنجة.

– في نفس الغرفة؟

– وماذا في ذلك. إنهن مسرورات.

ثم ضحك بصخب. أتأمله بدهشة. ابتسم لي. ضربني على كتفي.

– تعال. سأقدمك إليهن. يمكن لك أن تختار أية من تعجبك. خذها إلى الغرفة الأخرى إذا كنت تحتشم أن تفعل الحب أمامنا.

الأولى مستلقية على السرير تدخن وتشرب. على الطاولة زجاجة ويسكي. الثانية تتصفح مجلة «البلاي بوي». الثالثة تدخن وتشرب قهوة سوداء. حييتهن. ملأ لي روبيرتو كأسا. قال:

– إنه صديقي المغربي الوحيد. (التفتَ إليَّ). أليس كذلك ياعلي؟

ابتسمت له.

– صحيح. (أضفتُ له:) لقد بعثت بطلب الاستقالة من عملي.

– أترك هذا إلى الغد. احتفل معنا الآن. إننا نحتفل.

ضحكت الأولى. دخنتْ. شربت ثم قالت ضاحكة:

– روبيرتو، مزيدا من الويسكي من فضلك.

صَبَّ لها ثم جلس على حافة الفراش. قال لها:

– أحب شعرك و عينيك.

فكرت: يحب دراهمه في شعرها وعينيها. شربت من كأسي. أما أنا فعليّ أن أحب حياتي الجديدة وإلاّ انسحقتُ. قال روبيرتو:

– للاّ الصافية في يومها السابع. هذا ما لم أحلم به من قبل في طنجة.

عليّ: سنصير غنيين. صدقني. سترى حينما أحدثك عن اكتشافي الجديد. في طنجة كنوز لم تُكْتَشَفْ بعد.

فكرت: عماذا يتحدث؟ قالت الأولى:

– روبيرتو، املأ لي كاسي.

نظرتُ إليها. بدأتْ تثمل. ملأ لها روبيرتو وللثانية والثالثة راشفة قهوتها السوداء مدخنة سيجارتها بيدها الأخرى. شربت ما تبقى في كاسي. ملأها روبيرتو. فكرت. إن البشر مخلوقات مسكينة. إن عدم الرضا ينخر عظام العالم.

– اشرب. فكرت فيك. قلت لنفسي: الأفكار المزعجة تمتصه الآن في مكان كنت تحتمل الجلوس فيه.

– كنت في منزل تاتيانا.

– آه! تلك المرأة الحمقاء. بنتاها روز وتانيا تشبقانِني بجنون.

– ابدأ بالدجاجة ثم التهم كتاكيتَها.

– انك على حق. هي الضريبة.

باس الأولى. بستُ أنا الثالثة في خيالي. نظرتُ في اتجاهها دون أن أنظر إليها فالتفتتْ إليَّ وبَسِمَت عيوننا. قالت لي فتاة يوما: وجهك يشبه وجه أخي. قلت لها: وجهك يشبه وجه أختي. ومثلما يضاجع روبيرتو دراهمه بسخاء متناوبات عليه ضاجعت أنا تلك الفتاة وكلانا يتخيل ما لا يُقال، ولكننا نفعله بهوس. قالت لي بعد الصحو من اللازمان: – وجهك يشبه وجه أخي. فكرت: وجهي يشبه وجه أختي. أضفتُ لنفسي: وجهك يشبه وجه أخيك ووجه أخيك يشبه وجه أبيك. قلت لها: وجهك يشبه وجه أختي ووجه أختي يشبه وجه أمي.

قال روبيرتو:

– علي.

– نعم.

– فيم تفكر؟

– في لا شيء. إنني أشرب وأحلم بوجوه.

– تفكر في شيء. لا بد أنك تفكر في شيء ما.

– صحيح.

– ماهو؟

– في ميدوزا التي التوت على رأسها الأفاعي و الدماء التي تسيل منها، وصراخِها المُرْعِبْ وعينيها الجاحظتين.

– كفى من هذا التشاؤم. تعال معي.

قال لهن:

– لحظة، لحظة قصيرة.

تبعته خارج الغرفة إلى الممر.

– أيَّهُنَّ تريد؟ (تأملتُهُ باسما). السمراء؟ الشقراء؟ الأخرى التي تستلقي على الفراش؟

– لكن... أنا... ليس عندي...

– أعرف. أعرف كل شيء. اسمع، لا تفكر في شيء. لقد استلمت هذا المساء خمسمائة دولار. خذ أية من تروقك. هناك غرفة الزنجي آندي شاغرة. لقد سافر إلى مراكش صحبة فتاة أمريكية. ترك لي المفتاح لأفعل في غرفته ما أشاء. هيا، من تختار؟

– شاربة القهوة.

– آ، السمراء. (ضحك) حسنا. رائعة. إنها رزينة. أعجبتني، لا تتكلم و نحن نفعل الحب.

دخل غرفة الفتيات واتجهت أنا إلى غرفة الزنجي المسافر. كان بابها مفتوحا. كل أثاثها فراش وطاولة وكرسيان. على الجدران صور المناظر الطبيعية المصورة عن الأصل، وصورة فتاة عارية شبيهة بالصور العارية التي تنشرها مجلة «بلاي بوي». ضحكات في الغرفة. فكرت في تاتيانا. أنا تضاحكت. دخل روبيرتو ماسكا السمراء من يدها. ابتسمت الفتاة بحزن حلو. فكرت: الحب مع فتاة كئيبة يشبه اغتصابا. ذهب روبيرتو. جلسنا على السرير صامتين. مددتُ لها علبة سجائر فرجينيا. سحبتْ واحدة ويدها راعشة. أناملها رقيقة وطويلة

وأظافرها جدُّ مُقَلَّمة. ترشف من سيجارتها وتعض على أظافرها الواحد تلو الآخر بعصبية. قلت لها:

– هل يروق لك أن نبقى هنا أو نعود إلى الغرفة الأخرى.

قالت بصوت هامس:

– سنعود حينما ننتهي.

عاد روبيرتو بكأسين من الويسكي. وضعهما فوق الطاولة ولامس بأطراف أصابعه خَدَّ الفتاة كأنها ابنته.

– تمتعا جيدا.

ثم انسحب باسما لنا. ضحكات صاخبة في الغرفة. ناولتها كأسها. تبسمت عيوننا. أفاقت قليلا من شرودها. بدأت تستحضر نفسها وتصحو. ألقت نظرة على جدران الغرفة. بدأت تَشِفُّ. لم تعد ضبابية في عينيَّ.

- ١٢ -

أجوستين يتأمل السقف. فاليري تَتَمَشّى. تتألم. تطل على البحر من النافذة. وجهها يتقلص. تغني كلمات. حركات يديها متوترة. تعض شفتيها باستمرار. تلوي خصلات شعرها على أصابعها كما يفعل أجوستين حين يكون سيء المزاج. تدير خصلاتها على سبابتها وتشدُّ بعنف. نظراتها المتباسمة، المهووسة، تُهَدهدُ آلامها. تلتفت فجأة إلى جانبيها أو خلفها. تتأملنا ضاحكة ثم تعبس. حركاتها لا إرادية. تتجشأ. تمشي إلى الغرفة الأخرى، تعود ثم تذهب وتعود. سألتُ بنكي باشا بهمس:

– وإذا لم تحقن نفسها اليوم؟

– لا أدري ماذا ستفعل. قد تحاول أن تقفز من النافذة، ولكني لن أمنعها. لا بد أن نعثر على مخدر كيفما كان نوعه. أنا أيضا أعصابي ثائرة.

همست له:

– أنظر إليها. ماذا تريد أن تفعل الآن؟

– دعها تتصرف. لا تكلمها حتى لا تثور علينا.

أخرجتْ المحقن من علبته. مدت ذراعها. صرخ أجوستين:

– فالري، لا تكوني مجنونة.

قفز إليها ولوى معصمها. سقط المِحقن من يدها. أطلق معصمها فصفعته وبصقتْ على وجهه.

– اتركني أفْعَلْ ما أريد. أخرج من حياتي.

مسح بصاقها من على وجهه وقال:

– جُنّي كما تشائين، ولكن ليس هنا في قصري.

قهقهت بصخبٍ ثم قالت:

– ألاتخجل من أن تدعو هذه «الخربة» قصرا.

– إنه مكاني، وأنا حُرٌّ بان أدعوه بما أشاء.

– جبان.

ضحكت بهزء. تذهب وتجيء بقلق متزايد. التقط أجوستين المحقن. تعض على شفتيها. تُقَلِّمُ أظافرها بأسنانها. ردّ أجوستين المحقن إلى علبته ووضعها إلى جانبه. سألته:

– ماذا تريد أن تفعل.

– ألا تعرف هذا؟ تريد أن تحقن نفسها بالهواء في الشريان. فالتَقْتُلْ نفسها بعيدا عنا.

قلت بعد لحظة:

– سافرت أيضا أسرة تاتيانا إلى مراكش اذن.

– كل الذين يخشون على شَعَرِهم سيسافرون إلى مراكش أو الصويرة أو يغادرون المغرب إلى عالم آخر.

– هل حَلَقُوا لبعضهم؟.

– ليس بعد. أعطيت لهم أربع وعشرون ساعة لكي يقصوا خلالها شعرهم. إذا لم يقصوه، كالناس العاديين، فسيحلقون لهم بالمُوسَى. هذا ما قيل لهم.

– إنها حملة لتهجيرهم من هنا.

– ربما.

فالري هدأت قليلا. تنظر من النافذة إلى السماء والبحر. لمستُ شعري. سأقصه غدا. قلت له:

– روبيرتو بدأ يقتني الأشياء الأثرية: لوحات، تماثيل صغيرة، أصداف، نقود...

– هل رأيت بعضها عنده؟

– أراني ثلاث لوحات: واحدة تمثل المسيح مصلوبا، أخرى لمريم العذراء تبتهل ولوحة كبيرة لامرأة نصف عارية رسامها من القرن الثامن عشر كما يعتقد هو. سيحصل أيضا على لوحات لرسامين معاصرين من بينهم بيكاسو ودالي. لكن جنونه يتضاعف لاقتناء لوحة تُمثل امرأة مغربية في الزّيّ المغربي القديم: للأ الصافية في يومها السابع.

– حتى بيكاسو ودالي.

– هكذا قال.

– لكن من أين سيحصل على هذه التحف؟

في حيّ «السقاية الجديدة» يوجد يهودي عجوز له ما يشبه متحفا في منزله. بعض اللوحات بدأت تشوهها الرطوبة. إنه يُقَضّي آخر أيامه في تأملها و الحديث عنها مع بعض الأغنياء الذين يزورونه. لقد ألّفَ كتابا يروي فيه قصة هوايته الفنية، مع صور أُخِذَت له مع بعض مشاهير

الرسم في بداية هذا القرن. لقد عاش هذا اليهودي العجوز في باريس عندما كان بيكاسو يرسم لوحات زرقاءَ ووردية ودالي يُحاضر عن السُّريالية واضعا إحدى قدميه في إناءٍ مليءٍ بالحليب. ضحك وقال:

– لقد سبق لرامبو أن خرأ في إناءٍ من الحليب وجده قُدام الباب عندما خرج مرة غاضبا من منزل فرلين.

– صحيح؟ لم أكن أعرف هذه الحكاية. أعرف فقط أنه يريد أن يكون جيروم بوشْ القرن العشرين. (أضفتُ:) طلب روبيرتو من اليهودي أن يصور بعض اللوحات فوافق العجوز.

– إنه أيضا يسمح له بتصوير لوحاته.

– اليهودي مُصرٌ على رؤيتها أمامه حتى الموت. لايريد بيع احداها بأي ثمن. إنها روحه. لا يسمح بادنى اصلاحٍ فيها.

فالري تتمشى من ركن إلى آخر حالمة. سأل:

– من قدم روبيرتو إلى هذا اليهودي؟

– يهودي آخر. إن روبيرتو مع الكل وليس مع أحد: لليهود يقول لهم يهودي، للنصارى مسيحي وللمغاربة مُوَحِّدِي مُسالم. لا فرق عنده بين أول الأنبياء وآخرهم: «هذه هي أحسن وسيلة للعيش هنا ياعليّ». «هكذا قال لي. إن جنونه الكبير يتضاعفُ للحصول على هذه اللوحة. هكذا قال لي.

– وبعد ذلك.

– سيذهب إلى مدريد أو باريس أو إلى أيّ مكان في أوروبا لبيع كنزه.

- ١٣ -

بدأ يثمل. يدخن سجائر أمريكية بشراهة. يحبس الدخان في رئتيه مثل بنكي باشا. ليل هادىء، قمري. أشجار النخيل ساكنة. يشرب أكثر مني. كنا نشرب كونياك فوندادور. وضع يده على جنبه الأيمن:

– كبدي معلقة وصفرائي تكاد تنفجر. بدأت أفقد مناعتي هنا. في بوليفيا، سان فرانسيسكو والاسكا كنت أشرب الكحول أكثر من هنا. كنت اتمنى أن اثمل فلا اثمل. صديقي سلفادور كان يقول لي: «روبيرتو، إذا متُّ قبلك فلا تنس أن تسقي قبري بزجاجة من الكونياك الجيد». كان يحب زهور الأوركيديا. كنت أقول له: «كن مطمئنا. ساضع على قبرك زهورك وأسقيها بزجاجات من كونياك نابوليون. إن الأموات مثلك يستحقون أغلى وأجود ما في الحياة. إن أمكن أيضا فساصحب معي فتاة جميلة لتنطرح على قبرك تارة على بطنها وتارة على ظهرها». قبل أن ينتحر بثلاثة أيام اصطحبنا إلى منزله فتاتين. كان يحب دائما أن يفاجىء الفتاة الجديدة التي تكون صحبته. حين تعرت فتاته أمامه أخذ ثيابها ورماها من النافذة إلى الشارع. فتح لها خزانة مليئة بثياب النساء الفاخرة لتختار ما يلائمها من الأثواب. كان يمتلك جميع أقيسة الملابس النسوية. أحيانا يحتفظ بثوب الفتاة

الجديدة إذا أعجبته رائحتها. رأيته مرة يخرج «سليبا» من جيبه ويمسح به فمه. قال لفتاته في تلك الليلة: « أتمنى لك نهاية مملوءة بزهور الأوركيديا. إن زهرة الأوركيديا أخت المرأة الجميلة. المرأة الجميلة ينبغي أن تكون لها روح قاتلة وإلاّ ذَبُلَ جمالها في عين الرجال». وجدناه ميتا مُمددا على فراش من زهور الأوركيديا. كان يتمنى مثل هذه الميتة الأوركيدية لنفسه ولكل من يحبه. ماذا تقول أنت عن إنسان يقتل نفسه بأحب الزهور إليه؟.

– مات ميتة يضحك لها الأغبياء ويحتفل بها الأذكياء.

قال ضاحكا:

– برافو! من أجل هذا سنحتفل بقدحين آخرين ذكرى صديقي وصديقك أيضا سلفادور. يجب أن يكون لك أيضا أصدقاء من الأموات حتى ولو سمعت بهم لأول مرة.

نادى على الساقي:

– قدحان آخران. (أضاف لي:) أتعتقد أن مثل هذا الساقي سيموت سعيدا؟ إن خريطة الشقاء مرسومة على ملامحه. أرِني وَجْهَ انسانٍ أقُلْ لك بداية حياته ونهايتَها.

أما أنا ففكرت في المثل: «نصف قلبي عامر بالحب و النصف الآخر عامر بالصداقة».

وإذا لم أسكر فماذا ينتظرني؟ ماهي الزهور التي أحبها أنا؟ أم أن لا زهور لي! لم أهتم أبدا بأسماء الزهور إلاّ بروائحها. فحين أقرأ أسماءها في الأشعار والروايات والقصص أقول لنفسي كأني سليل الذين لا

يعرفون أسماء الأشياء، وإن رَعَوها، كيف هي ألوانها؟ أشكالها؟ روائحها المختلفة؟ لا شك أنها زهور رائعة وإلاّ فما الحديث عنها بمثل هذا الوَلَهِ المهووس؟ ربما السبب شفيفٌ وأنا المُعْتَمَ. أو ليس أن معرفة الزهور هي تربية أو حالة مُسْتثناة؟ لا أذكر أبدا أن أُسرتي الشقية بعسرها اشترت يوما باقة زهور. كان لنا الريحان للأموات والزهور والورود بِدْعةٌ للاحياء والأموات. كان كل فقير مُسلما، وكل ثري نصرانيا. غَرْسُ الزهور والورود أغلى من الخبز. الآن ربما يحق لي أن أسال: كيف هي زهور الأوركيديا؟ شكلها؟ رائحتها؟ أهي في المغرب؟ تبقى اذن زهورا في ذهني بلا أسماء وأسماء بدون زهور.

لأول مرة فهمت أن الورد أثمن من الخبز. لا مصالحة مع الذين سرقوا لي خبزي ووردي. المحاكمة ليست دعواي.

أخرج روبيرتو حافظة نقوده:

– في هذه الليلة ساقص عليك أكثر الأشياء كتمانا لك. ساطعنك هنا (وضع قبضة يده على مكان قلبي). إذا أنتَ بُحْتَ بها.

قلت لنفسي: أما أنا فلا أخاف أن يعرف الناس ماأكتمه. ثم ابتسمتُ له. أراني صورة منزله الخشبي في الاسكا.

– حول هذا المنزل يوجد إنسان مدفون. محفوظ في الثلج كسمكة كبيرة. إن حكاية قتل رجل من أجل امرأة لم تنته بعد في هذا العالم الذي خلقته مأساة الفروج التي لا تنتهي. وداعاً ياالاسكا! هكذا قلت لنفسي بعد يومين في طريقي إلى كولومبيا. وداعاً يالينا! قتلتُ رجلا من أجلك. من أجل أن تقولي بأنني كنت رجلا. ربما لن أراك قط. قد

يقتل رجل آخر من أجلك. كنت أوشِكُ أن أقتلها هي أيضا لأحقق لأوسكار وايلد حلمه في سجنه: «الانسان يقتل أكثر الذي يحب».

كلمات. كلمات. ما ينقصني هي الكلمات. لننهض. هذا المكان لم يعد يوحي بالكلمات والأفكار.

نادى على النادل. خطوتُ خطواتٍ إلى الأمام. الكلمات الناقصة في مكان لم يعد يوحي بشيء. هذا أيضا مثل زهور الأوركيديا. إنني في حاجة إلى مزيد من الخيال. إلى قوة التخيل لأفكر في الانتحار بالاوركيديا وقتل رجل من أجل امرأة قد لا أراها مرة أخرى.

قال:

- لنعبر إلى الرصيف الآخر إذا شئت. الظلام الخفيف يريح عينيّ.

فرك عينيه المتعبتين، الرامشتين باستمرار. خيال روبيرتو رائع، لكنه خيال مخيف.

- ١٤ -

مثل هذه الأسئلة، التي يسالونَنِيها، بدأت تقلقني وتخنقني. ماذا تعمل؟

كم عمرك؟ من أين أنت؟ متزوج؟ أبواك مازالا حيين؟ ماذا تفكر أن تعمل في طنجة أو في مكان آخر؟ إنك تبدو أقل من سنك. ماذا يعمل الشخص الذي رأيناه معك في مقهى سنترال يوم كذا، في ساعة كذا؟ من أين جاء؟ هل يتعاطى المخدرات؟ أيّ نوع يتعاطى؟ من يمدهم بالنقود هؤلاء الهيبيون حتى يعيشوا حياة بلا عمـــل؟ و أنت، هل تتناول معهم المخدرات؟ كيف هو تأثيرها عليك؟ قل لنا: أهي أيضا تتحشش تلك الفتاة التي تكون دائما معك أو مع الشخص الذي يتكلم الاسبانية والانجليزية والفرنسية الذي يكون معك أحيانا؟ هل ضاجعتها؟ يبدو عليها أنها شهوانية جدا. لابُدَّ أن تكون شاذة في علاقتها الجنسية. إن فتاة تعيش حياتها بهذا الشكل الاباحي لا يمكن أن تكون سوية. لم نعد نرى الشخص الذي يكون معك أو معها. لايكاد الواحد هنا يعرف شيئا عن هؤلاء الهيبيين حتى يختفوا. اسمح لي. إنني أسالك فقط.

طرقتُ الباب. تراجعتُ قليلا إلى الوراء. تطلعتُ إلى النافذة. طفل

يضرب كرته على الحائط بيديه ثم يتلقفها. طرقتُ الباب ثانية. قال الطفل:

– الفتاة التي تسكن هنا كانت أمس ترمي الأثاث من النافذة. كانت تصرخ وتبكي قاذفة الأشياء من النافذة.

– وماذا حدث لها؟

– لا شيء. جاء رجل فتحتْ له الباب وأعاد الأثاث إلى المنزل.

– وبعد ذلك؟

– لم تعد تقذف الأشياء من النافذة.

– ألم يأت البوليس؟

– لا.

– شكرا.

انفتح الباب. تأملتني بكآبة. كم هي حزينة وشاحبة!

– هل أدخل؟

لم تجبني. استدارت وتركت الباب مفتوحا. أمسكتها برفق من كتفها:

– فالري، ماذا حدث؟

غمغمت بعياء وتعاسة صاعدين الدرج:

– أووه، أنا فقط متعبة.

– وأجوستين؟

– سافر مع تاجر في الحشيش إلى البادية.

– لماذا؟

توقفت. ضَحِكَت ضحكةً خفيفة بهزء. كلماتها متمزقة. صوتها واه. قالت:

– ليكتب الشعر ويعبد الطبيعة. لقد صار أرواحيا. (لا تكاد تتماسك. أوشكت أن تسقط. أسندتها).

«تعبت من الجدران والشوارع. إنني في حاجة إلى منارة. أشتاق إلى القمم». هذا ما كان يردده قبل أن يسافر. أنشد بعض قصائد لبيرون وكيتس وشللي. أنشدنا معا قصيدة أدونايس لشللي. كان يرثي نفسه من خلال رثاء شللي لصديقه كيتس.

دخلنا غرفة الجلوس. الأثاث مبعثر. صحون وأقداح وزجاجات مكسورة وشموع على الأرض واقفة وطائحة. جلسنا. قلت لها:

– لقد حدثني في آخر مرة كثيرا عن رِهان باسكال، الشاعر ألكسندر بوب، عن ملتون والأوبانيشاد.

– هل معك سجائر؟

– نعم، لكن ماذا حدث لكِ أمس؟

هزت كتفيها و قالت:

– أووه، لاشيء! كنت متوترة.

سحبتْ السيجارة بيد راعشة، شاحبة.

– وأنت، هل ستبقين هنا؟

– أمي لم ترسل لي النقود بعد. حين أكون إلى جانبها تعطيني كل ما أريد و أعيش كما تريد، لكن حين أكون بعيدة عنها تدير حياتي كما تدير هي. إذا لم أذهب إلى مراكش أو الصويرة فسأعود إلى باريس.

(تنهدت بضيق) . كم أكره أن أقضي الشتاء في باريس! (أشعلت لها السيجارة) . و أنت؟

– لست نادما على استقالتي من وظيفتي، لكنني أيضا لست مسرورا في و ضعي الجديد. إن أصدقاءنا رحلوا. أفكر ان اهاجر إلى أوروبا: هولاندة، فرنسا أو الاسكندنافية. لست أدري بعد إلى أين ساذهب. ما رأيك أنت؟

– أنا أيضا لاأدري. لا أعرف بالضبط الحياة الجديدة التي تريدها لي أمي.

بدأت أحس بنفس وحدة اليوم الأو ل الذي جئت فيه إلى هذه المدينة القحبة. فكرت: إنها مثل فندق كبير هذه المدينة: محجوز في الصيف وكاسد في الشتاء. هذا ما يقوله أهلها. من قبل كنت اقول لنفسي. ها أنا موظف. اليوم أقول لنفسي. ها أنا عاطل. إن هذا يشبه حساب الأطفال : أعطاك أبوك تفاحة وأعطتك أمك تفاحة، كم عندك من تفاحات؟ إذا أكلت واحدة وأعطيت الأخرى لأختك، كم يبقى معك؟ إنني الآن مثل هذا الكم يبقى معك. لقد أكلت تفاحة أبي وتفاحة أمي ببرزهما وقشرهما دون أن أعطي الأخرى لأختي. (عينا فالري مغمضتان) ساتركها ترى نفسها. تطل على أعماقها. تفكر أوتحلم. تفكر في حلم أو تحلم لتفكر. ربما تحلم وتفكر معا. أو هي مجرد شاردة. قد تكون مثلي: لا أحلم إلاّ لافكر. لا أفكر قط كيف ينبغي لي أن أحلم. الانسان عند روبيرتو إمّا يفكر أو يحلم. أما أنا فأحلامي هي التي تختارني. أجدني منزلقا في حلم مثلما يغلبني النوم

جالسا على مقعد وثير أو في حديقة أو مطالعا في كتاب يذكرني بتجربة عشتها فأتخلى عن قراءة الكتاب لأستعيد تجربتي. إن هذا الانزلاق من اليقظة إلى الغفوة يشبه الوطأ على قشرة موز. كيف يستطيع الانسان اختيار سقوطه إذا هو وطأ قشرة موز في غفلة؟ ما يحدث هو أنني حين أسقط في حلم أجدني واقعا في حلم تلو حلم. هل أستطيع أن أقول لفترة من حياتي:

لا. أبدا لم أعشك. مثل هذا الانكار يشبه كذبة الأطفال في قسم: «لا. لست أنا الذي فعل هذا ياأستاذ» . ثم يشير خفية إلى أحد زملائه إذا خاف من العقاب .

نظرت إلى فالري. أغمضتُ عينيّ. بدأت أرى نفسي في الظلام. فكرت: هل أستطيع أن أفكر أنني لا أفكر؟ محتمل. لكن، أيعني هذا شيئا؟

- ١٥ -

كشف روبيرتو الغطاء القماشي عن اللوحة:

– أنظرْ هنا ياعليّ، إنها روعة. (ضحك). للآ الصافية في يومها السابع. هي العروس الحقيقية عندكم هنا منذ أكثر من نصف قرن. عروس أُعِدَّت للحريم. لا يمكن أن تتزي بمثل هذه الثياب الفاخرة وتتحلى بهذه الجواهر إلا عروس خلقت للحريم وتموت في الحريم. عروس لم يكن ممكنا أن يرى وجهها إلا زوجها، أقاربها، العبيد المخصيون والنصراني الذي سمح له أن يرسمها. هكذا قرأت أو سمعت.

فكرت: كيف استطاع الحصول عليها؟. قلت بدعابة:

– هل قتلت اليهودي؟

ضحك بصخب ثم قال:

– كلا. الأمر أسهل. لقد تعرفت على حفيده. وجدته في حاجة إلى المال. في العام الماضي رسب هو وزميلته اليهودية البولونية الأصل في البكالوريا. وهذه السنة لا يطيق رسوبه ثانية فبدأ يفكر في الهجرة إلى كندا. إنه يذهب كل مساء مع زميلته إلى مرقص غاسبل. GOSPEL.

– كم كلفتك؟

– مائة دولار. وعدته بمائة أخرى عندما أستلم المال من نيويورك.

إن جزءاً من روح جده قد باعه بمائة دولار. الأجزاء الأخرى الموزعة على اللوحات الأخرى هي أيضا ستباع الواحدة تلو الأخرى. إن أرواح الأجداد اليوم رخيصة.

– ألن يفتقد جده اللوحة؟

– لابد أن يكون قد افتقدها هذا الصباح. إنه يتناول وجبات طعامه ناظرا إليها. اليد إلى الفم و العينان على اللوحات، هذا ماقاله لي حفيده.

– وماذا تفكر أن يحدث؟

– قبل أن يحدث أيّ شيء سنكون أنا وأنت خارج طنجـــة. (أضاف:) هناك مغامرة أخرى.

– لوحات أخرى.

– أربع لوحات أو خمس ثم خمسة كيلو من الهاش وعشرة كيلو من الكيف المسحوق.

– هل تعرف المصير إذا....؟

– أعرف، أعرف. لكن ما الفرق بين بضع سنوات من السجن وهذا الوضع البائس؟

فكرت: إنه يعطيني درسا. يريد أن يمحو كل ما تبقى عندي من الاحتراس. معه الحق. متى أنقذني احتراسي؟ رب ما أفكر فيه أنا مرة أو مرتين يفكر فيه غيري عشرات المرات. لحظة صمت. سألني:

– قل لي، هل مازلت تفكر في فالري؟

اتجهت نحو النافذة. قلت له مديرا له ظهري:

أنا؟ كلا. (استدرت اليه:) لم أكن متعلقا بها أكثر من اللازم. إن علاقتي بها كانت عابرة.

– إنها فتاة حمقاء. إن حقن الشرايين بالهواء أو تمزيقها بشفرة الحلاقة ليس هو الخلاص. من الأفضل لها أن تقوم بمغامرة أ كبر من محاولة حقن الشرايين بالهواء.

– مثلما سنفعل نحن.

– ولماذا لا؟

– إذا شئت سنزورها معا قبل أن نسافر.

– ليس لدينا الوقت. ينبغي لنا أن نغادر المدينة غدا. لقد اتفقت مع شاب يسوق سيارة أجرة كبيرة. سنقلع من هنا في الثامنة مساء. حوالي العاشرة ليلا سنكون في سبتة. رتبت معه كل شيء.

– هل يعلم شيئا عن الهاش والكيف؟

– كلا. اترك لي ذلك. إنني أعرف كيف أتصرف في هذا الأمر.

أشار إلى اللوحات:

– هذه ستقول لرجال الجمارك: لا شيء هناك خطير. (أخرج حزمة أوراق مالية) وبضع أوراق من هذه ستؤكد لهم «لا شيء خطير هناك».

فكرت في كلماته: ما الفرق بين بضع سنوات من السجن و هذا الوضع البائس الذي نحياه؟ إمّا و ضع أفضل أو بضع سنوات من السجن. طالب، موظف، مستقبل ثم اما ما هو أفضل أو ما هو أسوأ.

ضغط على زرّ المسجلة. صوت ميري ماثيو: لوبال ألي بيانتو سوترميني.

LE BAL ALLAIT BIENTOT SE TERMINER

- ١٦ -

الثامنة إلا ربعا. السيارة واقفة في منحـدر طريق ثرفانتس. قال لي:

- ساعود بعد خمس عشرة دقيقة.

لم أفهم. غمزني مازحا. خرج من السيارة. جريت وراءه:

- إلى أين؟ ربما وقوفنا هنا سيثير شكوك رجال الأمن الليليين.

قال بصوت حازم:

- ارجع إلى مكانك. سأرجع بعد لحظة. (أخرج مطرقة صغيرة). هل تذكر علاقتي بتلك اليهودية العجوز صاحبة متجر المجوهرات؟

- نعم.

- ضربة واحدة بهذه على رأسها تُغْميها وأحصل على حفنة من مجوهراتها.

تأملته باندهاش. قال:

- ارجع إلى السيارة. لا تؤخرني. إنها تقفل في الثامنة. قل للسائق إني نسيت بعض الأوراق الشخصية في محل اقامتي. حاول أن تلهيه بحكايات طريفة.

رجعت إلى السيارة. سألني السائق:

- إلى أين ذهب صديقك؟

– لقد نسي بعض الحاجيات في محل إقامته.

فتح راديو السيارة. ضبط الموجة على أغنية جزائرية حزينة. تذكرت ليلتي الأولى مع كارين وايفا في مطبخ الفندق. شخير الحارس يعلو وينخفض. نغم كان يأتي من بعيد. تأملت يدي فوق ركبتي العاريتين. كان النغم الحلو يقترب من الفندق وأنا أدخل في حلم جديد. قال المذيع:

– إليكم الآن الشيخ العنقا في أغنية «الحمام اللي والفتو».

روبيرتو قادم و الشيخ العنقا يغني الحمام اللي والفتو مشى عليَّ. ما بقى لي في الدنيا ما ندير أمان.

فَتَحَ الباب وجلس جنب السائق وقال له:

– عفوا. هيا بنا الآن.

استرخى إلى الوراء. قال لي بالاسبانية:

– الآن كل شيء جيّد.

فهمت منه أنه دقّ رأس اليهودية واستولى على حفنة من مجوهراتها.

- ١٧ -

قال روبيرتو للسائق:

– قف هنا من فضلك.

– ماذا يحدث؟

قال روبيرتو مازحا:

– لا تَخْشَ من شيء. إننا لن نقتلك. فقط سنتوقف هنا للحظات لكي نصلي لهذا الليل. لا شيء خطير.

ضحك السائق ضحكة خفيفة. خرجنا من السيارة. قال السائق.

– لست أخاف من شيء.

قال لي روبيرتو:

– هات الزجاجة:

أخرجتها من الكيس البلاستيكي. هواء بارد يصفع. تَنَفَّسَ روبيرتو بعمق. فكرت: إنه يهيء نفسه لنتخطى خطر المغامرة. أخذ مني الزجاجة وفتحها. فكرت: كم هي موحشة هذه الليلة! مسح روبيرتو عنق الزجاجة براحته وقبلها. الأصوات الليلية تتجاوب. نَقَّ ضفدع وضفادعُ أخرى. قال السائق:

– إن توقفنا هنا، بهذا الشكل، سيبعث الشـــك في أية دورية

دركية.

تنهد روبيرتو ماسحاً فمه بظهر يده. مَدَّ الزجاجة للسائق:

– ويسكي جيد. اشرب نوبتك. أنا كفيل برجال الدرك. ليس ما هو أفضل من الويسكي لطرد التعب والقلق.

تبسم السائق متأملا الزجاجة. قال روبيرتو:

– كم أحب مثل هذا الصمت الوحشي!

تسلمتُ نوبتي. شربت ومسحت فمي. مددتُ الزجاجة لروبيرتو. احتفظ بها في يده للحظة. تراءى شعاع سيارة من بعيد. التفتَ نحونا أنا والسائق. روبيرتو يتأملُ الليل اللاإنساني ويتنفس بعمق بين لحظة وأخرى. سحب سيجارة. مددت العلبة للسائق. اقترب شعاع السيارة. تباطأت سرعتها. التفتنا نحوها. تضاعفت سرعتها ومرت كالبرق. قال السائق:

– إنها سرعة الخوف من كمين.

مدّ روبيرتو الزجاجة للسائق:

– اشرب. سنقلع عندما تفرغ الزجاجة، عندما تنتهي صلاتنا لهذا الليل ولأنفسنا.

ثم قال لي:

– كيف تشعر بنفسك الآن؟

– آ، إن فكرة هذه الزجاجة رائعة (أضفتُ:) مانأمله هو ألا يزعجونا كثيرا في الجمرك.

قال السائق:

– لا يشددون كثيرا إذا عرف الواحد كيف يتفاهم معهم.

– أنا الذي سأتكلف بالمتاع. اهتم أنت فقط بتسوية مرور السيارة. (هكذا قال له روبرتوثم ربَّتَ على كتفه).

تسلمت الزجاجة من السائق. مددت الزجاجة إلى فمي وفكرت: إما بضع سنوات في السجن أو وضع أفضل. شربت حتى شعرت بالاختناق. قال لي روبيرتو:

– بدأت تشرب الويسكي كما لو أنك تشرب الماء.

قال السائق:

– يعجبني الويسكي، لكنه يثقب المعدة.

قال روبيرتو بمزاح:

– ويسدها إذا كانت مثقوبة.

أعطيتُ الزجاجة لروبيرتو. شرب بقوة. تأمل بقية ما في الزجاجة وقال:

– تَبْقَى لنا هنا نوبة واحدة لكل واحد. نوبة واحدة وتبدأ رحلة كل شيء أو لا شيء.

صَوَّتَ قربنا ضِفدع. سألني روبيرتو:

– هل سبق لك أن أكلت وجبة ضفادع؟

– كلا، لكن سمعت أن أفخاذها لذيذة.

قال:

– أفخاذ العالم كلها لذيذة.

تسلم السائق نوبته وقال:

– كان في طنجة مطعم خاص بوجبات الضفادع. اليوم لم يعد يحمل سوى اسم «ضفدعة». هذا مابقي منه.

سأل روبيرتو:

– لماذا لم يعد يقدم اليوم وجبات الضفادع؟

– كان ذلك في عهد طنجة الدولية. أيَّامَ كان بعض الأجانب لا يصدقون أن طنجة تقع في المغرب.

سأل روبيرتو:

– واليوم ماذا يقولون عنها؟

– مدينة الذكريات القديمة: «هونغ كونغ» شمال افريقيا. هذا ماكانوا يقولونه عنها أيام عزِّها.

شربنا النوبة الأخيرة بسرعة. قال روبيرتو للسائق ماسكاً الزجاجة في يده:

– ما تقوله عن طنجة حق. هكذا أنا أيضا سمعت من أهل السوق الداخلي.

تأمل الزجاجة. وضع يده على جانبه الأيمن وقال بسخرية:

– الويسكي يسد المعدة ويشد الكبد ويمطط الشرايين.

باس الزجاجة ورماها في المنحدر. مرت سيارة أخرى التي تخطتنا. دخل السائق وركبت أنا إلى الوراء. ألقى روبيرتو آخر نظرة على المرج المظلم. دخل وقال للسائق:

– والآن، هل مازلت تخاف؟

ضحك السائق. نَقَّ ضفدع وضفادع وَصَرْصَرَت حشرات. شغلَ

المحرك واقلعنا. قال:

– قلتُ لك بأنني لم أخف، إنما أنا أحتاط في مثل هذه الظروف.

واجهتنا سيارة بشعاع قويٍّ أبيض. اضطرب المقود. شتم السائق:

– ولد الزنا. لم يغير الضوء. إنهم يشربون كثيرا في سبتة ثم يقودون سيارتهم. معظم حوادث السيارات التي تقع في طريق سبتة يكون أصحابها سكارى.

تراءت سيارة. قال روبيرتو:

– كن هادئاً. (أضاف:) هل تريد أن أقود أنا حتى نقترب من الجمرك؟

التفت السائق نحو روبيرتو:

– كلا. إنني....

صرختُ في السائق:

– احذر... انظر أمامك....!

- ١٨ -

الألم في جسمي كله. يشتد كلما حركت عنقي، رجلي اليمنى، يدي اليسرى. إنني كركاز تمزقت بعض خيوطه. يمرون باستمرار دون أن يلتفت تجاهي أحدهم. مرّ ممرض وممرضة. ناديتُ بصوت متعب:

– آنسة.

سمعت الشاب الممرض يقول:

– انتظر. اصبر قليلا. سنجد لك مكاناً عما قريب.

انقلبت سيارتنا مرتين. انقذفت من الباب في المرة الأولى. اشتعلت فيها النار ثم انفجرت. إما بضع سنوات في السجن أو وضع أفضل. لا شيء من ذلك. مررت يدي على العصابة حول وجهي ورأسي. قالت الممرضة:

– هل تشعر بتحسن الآن؟

مينة القصري. لم أرها منذ عشر سنوات.

– قولي لي، من فضلك، ماذا حدث لصديقي روبيرتـــو وللسائق؟

ألقت علي نظرة للحظة ثم قالت:

– ينبغي لك ألا تجهد نفسك الآن.

– أريد أن أعرف فقط. ماذا حدث لهما؟

قرأت على لوح سريري:

– علي التمسماني! هو أنت هنا؟

– أنت ترين. هل ماتا؟

– هزت رأسها بأسف.

إمّا كل شيء أو لا شيء. هذا ما كان يريده روبيرتو. قالت:

– الحجرات فيها أكثر من اللازم من المرضى، لكني سأحاول أن أجد لك مكانا أفضل من هذا الممر.

– شكرا. إن حركة مرور العاملين هنا تثير أعصابي.

• تأملتها بهدوء، انصرفت. هاهي إذن هنا. آخر مرة جلست إلى جانبي في السينما مع صديقتها بدرية. عشر سنوات مرت على رائحة البول في أصابعي والقبلات الخفيفة في الظلام: ظلام النفس وظلام المكان. كنت أكتب لها بعض الفروض الانشائية وتحل لي هي تمارين المعادلات ذات المجهولين. أحيانا تنجز لي رسوم الخرائط الجغرافية. نالت علامة ممتازة عن موضوع «زلزال أكادير» الذي كتبته لها. أهدت لي علبة سجائر شقراء وثمن تذكرة للسينما.

أعتذر. كان الشخص الأول يتأمل الميني – جيب. يضحكـون ويرفسون الكلب الهزيل العجوز. شورْطُها الشفاف يدغدغ مخي. يرعشني.

– هل أصحبك؟

– إلى أين؟

– إلى حيثما تشائين.

اللعينة. اشتريتُ ساعة ومشيت في الشوارع بتوقيت جديد. جبين النادل عرقان. قطرة من عرقه تدحرجت وتلاشت على خده. دمي يسيل في خيالي وروبيرتو يضحك كوحش أسطوري. صرخت: احذر... ! اللوحة تتارجح في يد طالب الرسم. الكرة الضوئية تدور في السقف وترسم أشكالا تنساب على الوجـوه والجدران. نظري يخترق وجه كاربن. روبيرتو يُجَنُّ في خيالي. أضحك مثله بقوة كي لا أخاف منه. قالت تانيا:

– ماذا تفعل هنا؟

تبعتها كأني أتبع نفسي. شهوتي يوقظها وجه امرأة حزين. عينا تانيا شهوانيتان مثل عيني أفعى. أشتهيها هي وأمها صاعدين الدرج. الوجه الحزين يوحي لي بالاغتصاب. الوجه الضاحك أيضا يوحي لي بالاغتصاب. الوجه الساكن كسطح الماء في سطل يوحي لي بالسفر إلى مكان بعيد مفكراً ألا أعود.

– لم أعد أذكر ما حدث بالضبط ياسعادة الرئيس. كنا ذاهبين في نزهة إلى سبتة.

– هل تعرف ما كان يفعله صديقك روبيرتو في طنجة؟

– كان يحب قراءة الكتب خاصة الأشعار.

– فقط؟

– نعم.

– ألم تكن تعرف أنه كان يبعث برسائل مكتوبة بالعبرية إلى الخارج؟

– كلا.

– هل أنت متأكد؟

–نعم.

– وإذا أردنا أن نجعل «نعم» مكان «لا» !

– لا يمكن.

– كيف لا يمكن. كل شيء ممكن. اسمع: (صوت الرئيس مسجلا:)

– هل تعرف ما كان يفعله صديقك روبيرتو في طنجة؟

(صوتي:)

– نعم.

– ألم تكن تعرف أنه كان يبعث برسائل مكتوبة بالعبرية إلى الخارج؟

– نعم.

– أليس هذا صوتك؟ هل سمعت نفسك تقول نعم؟

– نعم.

– سعادة الرئيس، إنني...

– كفى. أنت لا تعرف كيف تدافع عن نفسك.

نقيق الضفادع ونباح الكلاب يأتي من بعيد. فتاة عارية وشكل حيواني أسطوري. تذكرت وحشية الجمال في حلم: كانت الفتاة العارية تجري في الغابة. الوحش المفترس يوشك أن يدركها. وصلت إلى حافة النهر. لم يكن الوحش يعرف السباحة، لكن تمساحا راقدا كان يشاهد ما يحدث. التفتتْ خلفها دون أن ترى التمساح. ألقت

بنفسها في الماء قبل أن يدركها الوحش. الكهل الزمني يتأمل السيقان من منبت الساقين حتى نهاية الخصر. لم يكن ينظر إلى وجهها كان مؤخرة المرأة نسخة من وجهها. عيوننا تضحك. الشفاه تنسحق. أحيانا أتخيلها كشروج تلك الشفاه. وجه كارين بين يديّ كوردة لم تضحك بعد. أنطح الجدار في خيالي. الدم يسيل على عينيّ. الأشياء تبدو لي من خلال الستارة الدامية شعلة من النار في الغسق. في الدرج، وأنا خلفهما، اشتهيت أمها من خلال ابنتها تانيا: نصفي الأسفل لتاتيانا ونصفي الأعلى لتانيا. الأحذية في بيت تاتيانا تبدو لي مثل فروج مفغورة تنتظر ما تمتصه.

– ألم تكن تعرف أن صديقك روبيرتو كان جاسوسا هنا في طنجة؟

– أبدا لا، ياسعادة الرئيس.

– لا تعرف عنه أي نشاط سري كان يقوم به ضد بلادنا اذن.

– كان يحلم كثيرا، ويقرأ كثيرا، ويؤمن بمذهب لا شيء. كان يحب الشعر ويكرهه.

– يحب الشعر ويكرهه. ماذا تقول؟ وضح كلامك.

– كان يقول بان حبه للشعر هو سبب ضياعه: «إذا أردت أن تكره شيئا، اهتم به كثيرا. أحببه بجنون». هكذا قال لي.

– هذا غريب.

– صحيح. لقد كان روبيرتو شخصا غريبا، لكنه كان إنسانا طيبا مع الفقراء.

– دعنا من محبته للفقراء. إننا نريد أن نعرف ما كان يفعله ضد

بلادنا.

– ذات يوم ألقى بكتاب شعر من النافذة ثم ندم. وعندما هبط ليسترجعه كان الكتاب قد اختفى. إن إنسانا آخر سيشقى إذا عثر عليه وقرأه. هكذا قال لي. كان دائما في حاجة إلى الكلمات الجديدة، لكنه كان يكره قواميس اللغة. كان يفضل العلم على الشعر، لكنه أيضا يكره اينشتاين وفرويد. يشرب الويسكي ويقول بأن الماء ليس صالحا إلا للاغتسال. الماء للضفادع والجمال والأسماك. إنه... إنه... إنه...

– تكلم.

– الأشياء التي كان يقولها كثيرة.

– أعرف ذلك. لهذا سنساعدك على أن تقول لنا عنه كل ما كان يقوله. أنت تقول: «كان يحلم كثيرا».

– نعم.

– إن من يحب الحلم، مثلا، لا يمكن أن يكره الشعر.

– كان شخصا غريبا ياسعادة الرئيس. من أغرب الأشخاص الذين عرفتهم في حياتي. كان أيضا يكره أكل الفواكه لانها ليست صالحة إلا للقرود.

– هل تعرف أشخاصا آخرين غرباء يشبهون قليلا أو كثيرا صديقك روبيرتو؟

– نعم.

– هذا مهم. إن كلامك بدأ يتحسن. بدأ يهمنا ما تقوله. بدأت

تفكر جيدا. أذكر لنا إذن أسماءهم ومهامهم قبل أن تضيع في فراغ ذاكرتك. أقصد لاذاكرتك.

– لم أعد أذكرهم ياسعادة الرئيس.

– ها أنت بدأت تسوء. حاول أن تذكر القليل مما تعرفه عنهم. ادلك ذاكرتك حتى تستعيد حيويتها. ليس من المهم أن تتذكر كل شيء. سنساعدك. هاك (اقتربت من المنصة وأعطاني ملبسا). تناوله. اتركه في فمك. سيذوب. لا تخف. إنها كبسولة تحتوي على مادة تنشط الذاكرة المتعبة.

ضرب الشاب الفتاة عند أسفل بطنها. شتمته الفتاة. ضحك في وجهها بوقاحة. لطمها بلطف على نهديها. صفعته. تَلاَفَى الصفعة وأصابت صديقه. أمسكها من معصمها وضحك بوقاحة في وجهها. العودة إلى مدينة والدوار في رأسي وزحام المدينة ينتظرني. حمار يركب حمارة. يعضها في قفاها. فتاة تتأمل الأيلام اللذيذ من النافذة بانشراح. شعرها مقصوص وثيابها شفافة، يدها اليمنى ترقص على صدرها والأخرى مختفية. رأتني.. اختفت باسمة في غرفة فيلأها الجميلة.

– لكن روبيرتو مات، مات.

– إننا نحاكم الأموات والأحياء. ألا تعرف هذا؟

– كلا.

– قل لي، هل أنت متاكد من أن روبيرتو لم يمت؟

– هكذا قالوا لي.

– من قال لك أنه قد مات؟

– لم أعد أذكر. شخص ما أخبرني أو أشخاص.

– وإذا برهنا لك بأن صديقك روبيرتو لم يمت.

– روبيرتو مات. هذا ما قيل لي.

– كذبوا عليك. من السهل أن يكذبوا على شخص مثلك.

أشار الرئيس إلى شخص واقف على يساره. انفتح باب على اليمين. ظهر شخص لا وجه له. أمره الرئيس:

– تكلم، كلم صديقك عليّ. إنه يدينك بالموت ولا يصدقنا. انْفِ عنك هذه التهمة.

• قال روبيرتو:

– علي، كيف أنت؟ أنا روبيرتو.

إنه صوته. لا أكاد أصدق. إنه هادىء مثل ميت. أهو مخدر؟ ولكن أين وجهه؟ قال الرئيس:

– ها أنت ترى بأن روبيرتو مازال حيا.

أشار الرئيس بيده. مشى روبيرتو ببطء مثل روبوط واختفى خلف الباب. إنه روبوط حقيقي.

– ولكنه لا وجه له. أين وجهه ياسعادة الرئيس؟

– لايهم إن كان له وجه أم لا. المهم هو صوته. الوجوه بدأت تختفي. قليل من الوجوه هي التي مازالت تظهر بين حين وآخر. ستختفي هي أيضا. كل الوجوه الخطيرة ستختفي. ألم تسمع بهذا؟

– كلا.

– ها أنت تعلم اليوم. الوجوه تتشابه ولاتتشابه. لو أردنا خداعك لوضعنا لصديقك روبيرتو قناعا مطابقا تماما لوجهه الذي كان له. لكننا لا نريد أن نخدع إنسانا مثلك، ضعيف الذاكـــرة والمنطق. لقد أصبح صديقك دون وجه.

أجمع الزهور في أحد الحقول. تخاورت الأبقار والثيران. حمار ينهق. حمير تنهق. الأغنام تغثو. نهضت امرأة من وراء دفلى قرب الوادي: «ألا تحشم أيها الطفل؟» تَشُدُّ سروالها التحتاني باضطراب. لم أفهم ماذا تعنيه، «حول وجهك عني». رميتها بالطوب وهربت. «انتظرني، أعتقد أنني أعرف ابن من تكون. سترى فيما بعد. سأخبر أمك ياقليل الحياء».

قالت النساء لأمي في قاعة الاستراحة:

– ابنك أكبر من أن يدخل حمام النساء.

– هذا عيب.

– صحيح. إنه يعرف كل شيء.

قالت أمي لهن:

–لا يعرف بعد شيئا. إنه مازال صغيرا.

– يعرف. يعرف كل شيء. كل من هو في سنه اليوم يعرف كل شيء. ألا ترينه كيف ينظر إلينا!

قالت أمي:

– هو خائف منكن. إنكن تخفنه.

قالت امرأة بدينة:

– اتركنه. إنكن حقا تخفنه.

بدأت أبكي. قالت المرأة البدينة:

– لا تبك. تعالى معي ياعزيزي الصغير. أنا التي سأدخلك معي إلى الحمام. لن تجرؤ احداهن أن تمسك بسوء.

مَسَّدَتْ شعري. باستني على خدي. أمسكتني من يدي. تمسكتُ بها. كانت أمي تخلع ثيابها لتدخل إلى الحمام عندما قالت امرأة بخبث:

– سنرى ماذا سيفعل عندما يرانا عاريات تماما في الداخل.

قالت المرأة التي تحميني:

– لن يفعل شيئا. ماذا تعتقدين، هل سيجيء عندك ويطلب منك أن يحك لك ظهرك وفخذيك؟

ضحكت النساء. قالت لي حاميتي:

– لا تخف. إنك الآن معي. سأدق عنق من تمسك بسوء.

تذكرت أمي عندما تقول لي في الظلام: «نم. لا تخف من شيء. إنني هنا معك». كانت النساء ظلاما وحاميتي صَوْت أمي في الظلام. كففت عن البكاء ويداي شابثتان بيدها العرقانة. مشيت إلى جانبها إلى الحمام وحول نطاقي فوطة صغيرة.

لأول مرة، أنا ومينة، ننظر إلى بعضنا بجد وغموض. نظرنا إلى المدى البحري. بواخر تبدو كما لو أنها لا تتحرك. الأفق يبعث فيّ دائما شوقا إلى المجهول. المجهول الذي يُشَوِّقُني إلى مجاهيل لا تنتهي. قال لي فمها: «ها أنا. قبلني». تذكرت نافضة سجائر مكتوب عليها:

«اسرقني». ازدادت غربتنا. الأفق يضاعف الحنين إلى عالم مجهول.

قلت لها:

– مينة.

تطلعت إليّ وقالت:

– لا شيء.

ابتسمنا. ضممتها بقوة وبستها. وجهها كما لو أنها تستيقظ من النوم. قَطَفْت لها زهرة من الحديقة العمومية. تأملتها بحلم. تدير الزهرة بين أصابعها. حطمتِ القبلة غرابتنا. كشفت لنا القبلة عن جدية مفاجئة: أنا رجل وهي امرأة. كان صفة كلانا غائبة عن كل واحد منا. إعلان. القبلة إعلان.

– أتمنى لو أننا الآن في إحدى جزر هاواي نقطف زهور الأوشيد ونتناول طعامنا فوق شجرة أو تحتها.

– يمكن أن نفعل هذا هنا.

قلت لها.

– البعد. ما أريده هو البعد.

– من فضلك، إنني في ظروف صعبة. هل تعطيني درهما؟

مضى بحيوبة دون أن يلح أو يتذمر. ندمت. أشعر دائما بنوع من الغباء يلازمني في مثل هذه الظروف. الأشياء إما تفوتني أو لم تأت بعد. أو تكون قد جاءت ومضت دون أن أشعر بعبورها. تدهشني العلاقات البشرية. أحيانا قبل أن أفكر في أمرٍ ما يكون كل شيء قد تقرر تلقائيا. المفاجاة لا تترك لي مجال الاختيار. إنها دوار. بطن كارين يخفق تحت

رأسي. أصابعي تغوص في شعرها الأملس برفق وأصابعي الأخرى تغوص في فرجها مثل الفْلانْ. يا لرياضة الحب التي أنستني خيبتي في طنجة.

لوحة للاّ الصافية في يومها السابع. أسبوع مضى على افتضاضها. هذا ما تقوله تقاليد الزواج هنا. جرحها لم يزل طرياً والرسام النصراني يرسمها. قال روبيرتو:

– ياللعالم الذي مايزال يحتفل بالافتضاض.

• دهشت في الحمام لعري المرأة القوية التي أدخلتني معها. بدت لي النساء العاريات مثل أسماك واقفة وجالسة ومنبطحة. بعضهن يحلقن عانتهن وابطيهن. دهشت كثيرا. قالت لي أمي وهي تحك ظهر المرأة السمينة التي أدخلتني معها:

– لا تنظر إليهن كثيرا.

بعضهن لم يكن عاريات تماما. رأيت امرأة تحلق ابطيها ثم انفرجت ساقاها وأخذت تحلق أسفلها وسطل الماء أمامها. الحرارة والعري ورائحة العرق تُغْثيني وثرثرة النساء التي لا أفهمها. ضحكات وشتائم. فرقعة اصطدام الأسطال وشجارهن حول سقي الماء الساخن من سقاية الحمام.

أحسست بعربتي تُقادُ إلى اليمين. فتحت عينيّ: ممرض شاب إلى

جَانبه مينة تنظر إليّ باسمة. كل شيء يحدث من أجل ما هو أفضل. المدينة كلها أمامي. واقف فوق قمة الصخرة في سيدي عمار. ايوريكا! EUREKA أوربي إي أوربي URBI ET ORBI.

محمد شكري

طنجة ٢٠ أبريل ١٩٧٦